التنوير

المرأة الجديدة

قاسم أمين

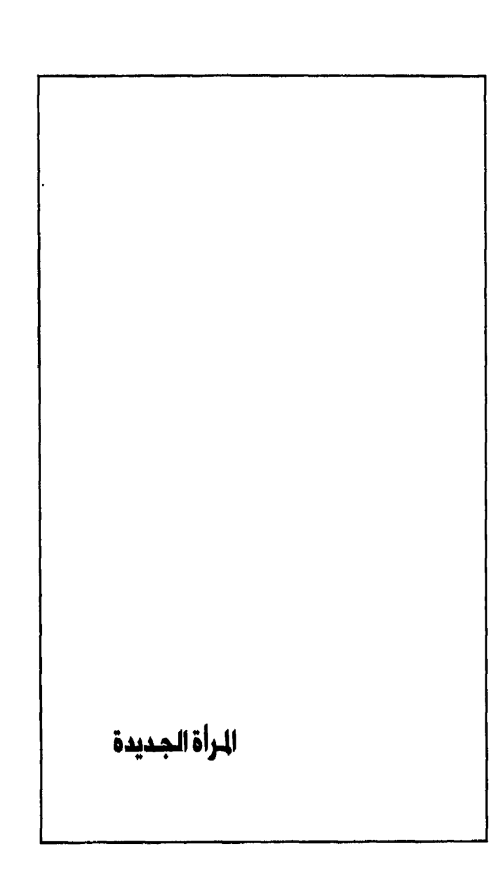
مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 1996



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ١٩٩٨
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة



المرأة الجديدة



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(التنوير)

المرأة الجديدة
قاسم أمين

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المرأة الجديدة

قاسم أمين

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

الاهـــداء

الى صديقى سعد زغلول :

فيك وجدت قلبا يحب ، وعقلا يفتكر ، وارادة تعمل ٠

أنت مثلت الى المودة فى أكمل أشكالها ، فأدركت أن الحياة ليست كلها شـقاء ، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها ٠

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح سـاعات أحـلى اذا كانت بين رجـل وزوجته ٠

ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالا ونساء ٠

١٥ أغسطس سنة ١٩٠٠

قاسـم أمـين

مقدمة

المرأة الجديدة : هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث ، بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الانسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه، ورسمت له الطريق التى يجب أن يسلكها • ذلك حيث أخذ العلم يبحث فى كل شيء ، وينتقد كل رأى ، ولا يسلم الا اذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة للعامة وانتهى به السعى الى أن أبطل سلطة رجال الكنيسة • وألغى امتيازات الأشراف ووضع دستورا للملوك والحكام، وأعتق الجنس الأسود من الرق ، ثم أكمل عمله بأن نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التى يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهن بأن يساوينهم فى كل شيء •

كان الأوروبيون يرون رأينا اليوم فى النساء ، وأن أمرهم مقصور على النقص فى الدين والعقل وانهن لسن الا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان ، وكانوا يقولون : ان (ذات الشعر الطويل والفكر القصير) لم تخلق الا لخدمة الرجل ، وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التى تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا يسمونه خصائص الرجال •

فلما انكشف عنهم غشاوة الجهل ، ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتشفوا أنهم هم أنفسهم منشأ انحطاطها وسببه

فسادها ،وعرفوا أن طبيعتها العقلية والأدبية قابلة للترقى كطبيعة الرجل ، وشعروا أنها انسان مثلهم ، لها الحق فى أن تتمتع بحريتها، وتستخدم قواها وملكاتها ، وأن من الخطأ حرمانها من الوسائل التى تمكنها من الانتفاع منها ٠

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربية فى طور جديد ، وأخذت فى تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئا فشيئا ، ونالت حقوقها واحدا بعد الآخر ٠ واشتركت مع الرجال فى شئون الحياة البشرية ، وشاركتهم فى طلب العلم فى المدرسة ، وسماع الوعظ فى الكنيسة ٠ وجالستهم فى منتديات الأدب ، وحضرت فى الجمعيات العلمية ، وساحت فى البلاد ٠ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك ــ الأنثى ــ تلك الذات البهيمية التى كانت مغمورة بالزينة ، متسربلة بالأزياء ، منغمسة فى اللهو ، وظهر مكانها امرأة جديدة ، هى المرأة شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع ! ٠

هذا التحويل هو كل ما نقصد ٠

غاية ما نسعى اليه هو أن تصل المرأة المصرية الى هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها ، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب ، ومن سعادة الحال فى المعيشة ، وتحسن استعمال مالها من النفوذ فى البيت ٠

اذا تم ذلك فنحن على يقين لا يزعزعه أدنى شك من أن هذه الحركة الصغيرة تكون أكبر حادثة فى تاريخ مصر ٠

اذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح أن يصدنا عن المثابرة فى السعى الى تحقيق آمالنا أن الجمهور من العامة لم يلتفت اليه ، أو أن بعض الكتاب أظهروا السخط عليه ، ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا ، وساخر يقضى عمره فى السفاسف ، ومغتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟؟ ٠

نحن لا نكتب طمعا فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين اذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلى معناه ، لا يفهمه الا اذا جاء محرفا عن وضعه منصرفا عن قصده برأى شيخ هو أجهل الناس بدينه ! ولا يحبون الوطن الا اذا تمثل لأعينهم فى صورة قبيحة وأخلاق رثة وعادات سخيفة ! وانما نكتب لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل ، فهى التى بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذى تستحقه من العناية والبحث .

لم نر هذه الدفعة حاجة الى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فان ما أوردناه فى كتاب [تحرير المرأة] من النصوص القرآنية صريح فى اباحة كشف الوجه واليدين ، ومعاملة النساء للرجال ، وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . أما أن فريقا آخر من الفقهاء استحسن التشديد فى الحجاب فهذا رأى لا يلزمنا الدين باتباعه .

واذا كان فى هذه المسألة قولان فمن الصواب أن يرجح القول الموافق للحرية الانسانية وللمصلحة العامة .

وقد كتب صاحب مجلة [المنار] (١) كلمة فى الحجاب نوردها هنا تأييدا لرأينا . قال :

« وأما الأمر الثالث ، وهو حكم الشرع فى هذه المكالمة . فالمعروف أن الشرع انما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية . وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال وحديثهن معهم فى الملأ دون

---

(١) هو الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) كاتب اسلامى سلفى ، جعل من مجلته وقلمه وسائط بين فكر الامام محمد عبده وبين جمهور القراء . ولذلك كانت أهم انجازاته هى الحفاظ على آثار الأستاذ الامام وكتابة تاريخه ولقد تميز منهجه السلفى المحافظ عن منهج محمد عبده العقلانى ، خاصة بعد وفاة الأخير سنة ١٩٠٥ م .

الخلوة ، وكفاك أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهن اللاتى أمرن بالمبالغة فى الحجاب ـ كن يحدثن الرجال ، حتى أن السيدة عائشة كانت قائدة عسكر ومدبرة له فى وقعة الجمل المعروفة ، وما أخال أن مكابرا يقول انها لم تكن تكلم أحدا منهم الا ذا محرم » .

هذا هو رأى رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان أهل الأزهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلا من اشتغالهم بالألفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا فى شىء مما قلناه .

ومن العيب أن الجرائد وأصحاب الأفكار يرمون كل يوم علماء الدين الاسلامى بأنهم السبب فى انحطاط وتأخر الأمم الاسلامية عن سواها فى المدينة ، ويصفونهم بالتساهل فى فهم الدين وعدم مراعاة أحكامه ، ثم اذا تحركت غيرة لعرض رأى يظن أن فيه خيرا للأمة تحولت أنظارهم الى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيه ، وغاب عنهم أن الذين يحاربون الاصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم فى تهذيب عقل أو استكمال أدب أو تقويم عمل ، ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ الا رغم أنفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بابداء رأى فى شأن من شئون الأمة فضلا عن مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشرى .

والمطلع على الشريعة الاسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التى يحق لها أن تفخر به على سواها ، لأنها منحت المرأة من اثنى عشر قرنا مضت الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية الا فى هذا القرن وبعض القرن الذى سبق ، حتى انها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهى الآن مشتغلة بالمطالبة بها .

فاذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية فى تدبير ثروتها والتصرف فيها ، وحثت على تعليمها وتهذيبها ، ولم تحجر عليها الاحتراف بأى صنعة والاشتغال بأى عمل ، وبالغت فى المساواة

بينها وبين الرجل الى حد أن أباحت لها أن تكون وصية على الرجل وأن تتولى وظيفة الافتاء والقضاء أى وظيفة الحكم بين الناس بالعدل ، وقد ولى عمر رضى الله عنه على أسواق المدينة نساء ، مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم ، مع أن القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة الا فى العام الماضى ، اذا كانت شريعتنا تحامى عن المرأة الى هذا الحد ، وتمنحها هذه الدرجة من الحرية ، فهل يجدر بنا فى هذا العصر أن نغفل مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التى تؤهل المرأة الى استعمال هذه الحقوق النفسية ، ونضيع وقتنا فى مناقشات نظرية لا تنتج الا تعويقنا عن التقدم فى طريق اصلاح أحوالنا ؟ .

لا أظن أن ذلك يليق بنا وأرجو أن كثيرا من القراء يرون مثل رأينا .

المرأة فى حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم الا بعد معرفة حالها فى الماضى تلك هى قاعدة البحث فى المسائل الاجتماعية ، فاننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالنا فى أى شأن من شئوننا الا بعد استقراء الحوادث الماضية والالمام بالأدوار التى تقلبت فيها ، وبعبارة أخرى يلزم أن نعرف من أى نقطة ابتدأنا حتى نعلم الى أى نقطة نصل ٠

ذكر شيخ المؤرخين « هيروديت » (١) أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة الى الصدفة ٠ ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام ٠ وكان الشأن اذا ولدت المرأة ولدا أن يجتمع القوم متى وصل الولد الى سن البلوغ وينسبوه الى أشبه الناس به ٠ وهذه العادة كانت معروفة أيضا عند القبائل الجرمانية وعند العرب فى الجاهلية ٠ وقد جاءت روايات السياح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ ، فان جميع السياح الذين طافوا بلاد « تايتى » وجزائر « مركيز » وغيرهما من أقاليم أستراليا وزيلنده الجديدة وبعض بلاد الهند وأفريقيا ذكروا أن الزواج غير معروف فى تلك البلاد ٠

ولا خلاف فى أن المرأة التى هذه حالها تعيش مستقلة ، تعول نفسها بنفسها ، مساوية للرجل فى جميع الأعمال ، بل لها من المزية

---

(١) هو الملقب بأبى التاريخ ، عاش ما بين سنتى ٤٨٤ و ٤٢٥ ق م وسجل تاريخ الصراع بين الفرس والاغريق وزار عددا من البلاد ٠ من بينها مصر ٠ وكتب عن مشاهداته وما سمعه من طرائف وأساطير ٠

عليه أن نسب الأولاد يتعلق فى الغالب بها وحدها ، فالمرأة فى هذا الدور الأول هى ذات الشأن فى الهيئة الاجتماعية ، وربما كانت تشترك فى الدفاع عن قبيلتها مع الرجال ، ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات فى التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة الى الآن فى بعض البلاد تقضى بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا القبيل أن ملك « سيام » له عدد من النساء عهد اليهن حراسته ، وكان لملك « الداهومية بها نزن » الذى استولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين خمسمائة جندى من الرجال وخمسمائة من النساء ٠

ولما ودع الانسان بداوته ٠ واتخذ وطنا قارا ، واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ، ومن أهم ما ساعد على تشكيل العائلة أنه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين أسلافها كما كان جاريا عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين ، وكما هو جار الى الآن عند الأمم المتوحشة ، وله بقية فى بلاد الصين ، وكانت العائلة تقدم القربان الى آلهتها ، فكان هذا باعثا للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية ٠

وترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانها من استقلالها ، لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته ، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وهذا أمر يعلمه كل مطلع على القانون الرومانى ، وذكره المؤرخون ورواه السياح المعاصرون لنا يشترى الرجل زوجته من أبيها فتنتقل اليه جميع حقوق الأب عليها ٠ ويجوز له أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر ، فاذا مات انتقلت مع تركته الى ورثته من أولادها الذكور أو غيرهم ٠

ومما يتبع هذه الحال أن المرأة لا تملك شيئا لنفسها ولا ترث ، وان يتزوج الرجل بعدة نساء لأن الوحدة فى الزواج تفرض المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات ٠

ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعا بتأثير الحكومة ، فردت اليها حق الملك كله أو بعضه ، وحق الارث تاما أو ناقصا ، على حسب الشرائع ، ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ في أي بلد من البلاد الى حد أنها سوت بين الرجل والمرأة في الحقوق ، فالمرأة في الهند كانت مجردة عن شخصيتها الشرعية ، وعند اليونان كانت النساء مكلفات بأن يعشن في الحجاب التام • ولا يخرجن من بيوتهن الا عند الضرورة ، وعند الرومان كانت المرأة في حكم القاصر ، وفي مبدأ تاريخ أوروبا عندما كانت خاضعة الى سلطة الكنيسة والقانون الروماني ، كانت في أسوأ حال ، حتى أن بعض رجال الدين أنكروا أن لها روحا خالدة وعرضت هذه المسألة على المجمع الذي انعقد في ماون في سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة أن المرأة انسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل ، وكان من الضروري أن تعيش تحت قوامة رجل وهو أبوها قبل زوجها ، ثم زوجها بعد الزواج ، وأحد أبنائها اذا مات الزوج ، أحد أقاربها من الذكور أو أقارب زوجها ان لم يكن لها أولاد ، ولا يجوز لها في أي حال أن تتصرف بنفسها ، وكانت غير أهل للشهادة في العقود ولا للوصاية على أولادها القصر ولا لأن تكون حكما أو أهل خبرة ، وشوهد في بعض ولايات سويسرة أن شهادة امرأتين تساوي شهادة رجل واحد ، ولا تزال آثار هذه الأحكام باقية الى الآن في كثير من ممالك أوروبا • ذلك لأن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة • والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها •

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو أول حكومة سياسية ظهرت في العالم ، وقد اضمحل ثم زال بعد أن أقام أجيالا في البلاد الغربية ، وحل محله النظام الدستوري المؤسس على أن الحاكم ليس له حق الأشخاص ولا على الأموال الا ما تفرضه القوانين •

ولكنه لا يزال سائدا في الشرق بعامة حيث نرى سكان الصين

والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين الى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين •

وليس هنا محل البحث عن الأسباب التى وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذى حرمها الترقى فى المدنية وحصر حركاتها فى مدار واحد بدون أن تنتقل من مكانها • وانما يهمنا هنا أن نثبته أمرا يتعلق بموضوعنا وهو :

وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد • ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط نفسه وأفقدها وجدان الحرية • وبالعكس فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا •

وأن لسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : انهما متفاعلتان ، وأن لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها • وبعبارة أخرى : ان شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية •

انظر الى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم اذا خرج منه •

ثم انظر الى البلاد الأوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من اعتبار وحرية الفكر والعمل ، وان كن لم يصلن الى الآن الى مستوى ما أعدلهن ، ثم انتقل الى بلاد أمريكا تجد الرجال مستقلين فى معيشتهم الخاصة استقلالا تاما وان سلطة الحكومة وتداخلها فى شئون الأفراد يكادان أن يكونا معدومين ، ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هى فى أوروبا بكثير ، حيث تساوى المرأة والرجل من البلاد الأميريكية فى جميع الحقوق الشخصية • وفى بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما أيضا فى الحقوق السياسية•

ففى ولاية « بومنج » نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ ٠٠ وانى أنقل هنا رأى رئيس حكومتها « المسيو شامبل » ، الذى جاهر به فى خطبة القاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال :

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملن حقوقهن السياسية ، فينتخبن نواب الأمة وينبن بأنفسهن عنها ، ويجلسن فى مراكز القضاء • ويؤدين ما دون ذلك من الوظائف العمومية ، ومن العدل أن النساء قد قمن بهذه الواجبات الجديدة على وجه من الرزانة وحصافة الرأى وسلامة الذوق لا ينقص عما يقوم به الرجال • وهذه التجربة بالنسبة لقصر مدتها لا تصلح أن تكون دليلا مقنعا لاثبات استعداد المرأة فى القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل على حسن الظن بفطرة المرأة • ومادام الحال على هذا المنوال فلهن الحق فى الاستمرار » •

وبعد تجربة أخرى مدة أربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء فى استعمال حقوقهن السياسية ، وقد أعلنت رأيى فى جلسة سابقة • وصرحت بالفوائد التى أظهرتها التجربة ، والآن أقول : ان ما شاهدته فى مدة هذه الست أقنعنى اقناعا تاما بأننا أصبنا فى تخويل النساء حق الانتخاب • وأن مساواة المرأة للرجل فى الحقوق السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحا لا يمارى فيه أحد » •

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال « طاير » • وقد انتخب من بين أعضاء مجلس الشيوخ الولايات المتحدة • فخطب قائلا :

« لقد مضى ثمانى سنين والنساء يتمتعن فى أرضنا بالحقوق السياسية ، وكل يوم يمر يزيد الأهالى ثقة بالنساء • وفى رأيى ان هذا نتيجة حسنة لأنها موافقة لصالح أمتنا » •

ثم بعد ذلك بخمس سنين فى ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى جون هويت بما هوآت :

ان ولاية « بومنج » هى المكان الوحيد الذى تتمتع فيه النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا فرق بين الصنفين ، وهذا الاقدام من أمتنا ، التى أرشدها حب الحق والعدل الى اصلاح خطأ طال عليه الزمن • قد وجه أنظار العالم الينا • ولئن زعم اخصامنا أننا لا نزال فى دور التجربة فكلنا نعلم أن هذا الدور قد انقضى بالنسبة الينا • وانى أصرح هنا بأن اشتراك النساء فى أعمال الحكومة مع الرجال ترتب عليه أن القوانين عندنا أصبحت أحسن مما كانت عليه • وان عدد الموظفين الأكفاء وصل الى درجة لم نعهدها من قبل وأن حالتنا الاجتماعية ارتقت كثيرا ، وهى الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الأخرى • وان جميع المصائب التى كنا نهدد بحلولها ، مثل فقد النساء رقة الطبع • واضطراب النظام فى معيشتنا المنزلية • لم نر لها أثرا الا فى مخيلات خصومنا •

ان السواد الأعظم من نسائنا قدرن حقوقهن الجديدة حق قدرها • واعتبرن القيام بها واجبا وطنيا • وبالجملة فانى أقول : ان تجربة اثنتى عشرة سنة مع النجاح الباهر قد مكنت فى عقولنا ونفوسنا ان مساواة المرأة للرجل مما لا يرتاب فيه •

وكل هذه المقدمات تنساق الى طلب الكمال فى حالتنا الاجتماعية حتى نجعل ولاية « بومنج » نجما يهتدى به العالم فى الحركة العظيمة التى تصعد بالانسان ذروة الحرية » •

وليس على أن أضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام الا أن قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولا به الى الآن فى « بومنج » • وأن ثلاث ولايات أميركانية قد حذت حذو تلك الولاية وخولت النساء الحقوق السياسة ، وهى ولاية « آوته » و « كولورادو » و « ايداهو » •

أما فى باقى ولايات أمريكا فالمرأة لم تنل الى الآن حقوقها

السياسية · لكن كل مطلع على حركة الرأى العام فيها لا يشك أنها ستنال هذه الحقوق فى زمن قريب جدا · واليك رأى رجلين من أكبر رجالها السياسيين ·

قال « سميلون » العضو فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة : « انى أعتقد أن انتشار الفسق فى مدننا الكبيرة لا يمكن أن يضيق نطاقه الا اذا منحت النساء حق الانتخاب » ·

ومن رأى « جيلبير هافيه » ، وهو أيضا من أعضاء مجلس الشيوخ : « ان فساد الأخلاق السياسية لا يصلحه الا اشتراك النساء فى الانتخابات · لأننا نعلم أن الخمارة هى مجلس البلدية ومركز الانتخابات وما ذلك الا لأن الخمارة هى المحل الوحيد الذى لا تدخل فيه المرأة » ·

لعل القارىء يستغرب كيف أن الرجال فى أمريكا يرون أن لا سبيل الى محاربة الفسق وفساد الأخلاق الا بمعرفة النساء · هذا أمر يحتاج الى البيان ، ولذلك أنقل هنا رأى القاضى الأمريكانى « جون لينجمان » وقد نشر فى سنة ١٨٨٢ فى أهم جرائد أوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء فى الوظائف العمومية اذا اجتمعوا فى مكان واحد لا يخلو جيب واحد منهم من مسدس ، فاذا قام نزاع خفيف بين بعض الحاضرين لم يكن ينتهى عادة الا بقتل أو جرح ، وكان المحلفون يحكمون فى الغالب ببراءة الجانين ، فلما اشتركت النساء فى الوظائف القضائية مع الرجال نتج عن ذلك معاقبة المذنبين ، وكذلك كان المحلفون لا يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار فتغير الحال الآن وقد ترتب على حضور النساء فى الجلسات اننا نرى الآن قاعدتها متحلية من النظام والأدب والوقار بأكثر مما كان يعرف فيها من قبل ·

ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية انهن أهملن

ما يجب عليهن فى منازلهن ولم يصل الى علمى أن زوجا اشتكى زوجته بسبب اشتغالها عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم أر شقاقا بين زوجين بسبب اختلاف آرائهما السياسية ، ولم أسمع به ، على أنى أعرف عدة عائلات ينتمى فيها الزوج الى حزب والزوجة الى حزب آخر » .

على أن المرأة الأمريكانيـــة منحت فى جميع الولايات المتحدة حظا عظيما من الحقوق العمومية . فلها أن تحترف بحرفة المحاماة وتترافع أمام جميع المحاكم . يوجد قضاة من النساء فى ولايات « كانساس » و « بومنج » و « كولومبيه » و « شيلى » و « زيلندة » وغيرها ، وعين بعض أفرادهن في وظيفة نائب عمومى . ويوجد عدد عظيم منهن فى نظارات الخارجية والداخلية والحربية .

أما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية . والقساء القسيسات . والمهندسات ومديرات الجرائد . والمستخدمات فى الرصد خانات والبوستة والتلغرافات فلا يكاد يحصى .

وتشغل النساء أغلب الوظائف فى ادارة المعارف . فقد بلغ عددهن خمسا وتسعين فى المائة من المدارس الابتدائية . قال « بول بورجيه » (١) الكاتب الفرنساوى الشهير فى كتاب حديث ألف عقب زيارته أمريكا فى وصف حال نسائها ما يأتى :

« اذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن مع الصبيان فى مكان واحد ، والأستاذ الذى يلقى الدرس رجلا أو امرأة بلا فرق واذا دخلت فى معمل علمى وجدت بنات محنيات الرءوس على آلة الميكروسكوب وبجانبهن شبان من طلبة العلم ، الكل مشتغل بفحص

(١) روائى فرنسى (١٨٥٢ ــ ١٩٣٥ م) كان من أتباع المدرسة الطبيعية فى الأدب . ثم خرج عليها واعتنق المذهب الكاثوليكى . فغلبت الروح الدينية على رواياته .

مسألة من علم التشريح ، ويزورك أحد مكاتبى الجرائد من غير أن يسمى نفسه فتجد انه امرأة • وتروم استدعاء أحد الأطباء المشهورين فتجد عدد الأطباء من النساء مساويا لعدد الأطباء من الرجال ، وان لم يكن مساويا فى بعض الجهات فهو من الكثرة بحسث لايعد التطبيب منهن من قبيل النادر » •

ويكفى لبيان ارتقاء شأن المرأة الأمريكانية أن نقول : انه تبين من الاحصائية التى عملت فى سنة ١٨٨٠ أن النساء المحترفات بالعلوم والأدبيات فقط بلغ عددهن خمسا وسبعين فى المائة و ٦٣ فى المائة فى التجارة و ٦٢ فى المائة فى الصناعة

فاذا انتقلنا من أمريكا الى انكلترا ، وهى أقرب الأمم اليها ، وجدنا أن اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريبا عما يشاهد فى أمريكا ، فقد نتج من احصائيتها الأخيرة أن مليونا منهن يشتغلن بالعلوم والأدبيات وثلاثة ملايين بالتجارة والصناعة •

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب فى المجالس البلدية وفى مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ، ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى فى المستعمرات الانكليزية « كالكاب » و « كنـــدا » و « استراليا » •

أما مســـألة منحهن الحقوق السياسية فهى لاتزال فى دور التحضير ، وأول طلب تقدم من النساء الانكليزيات الى مجلس النواب كان فى سنة ١٧٦٦ ، وأمضى عليه ستمائة ألف امرأة وأول مشروع تقدم الى مجلس النـــواب لتخويلهن الحقوق السياســية كان فى سنة ٦٧ (١) وكان من حسن حظه أن العلامة « استوارت ميل » (٢)

(١) أى سنة ١٨٦٧ م •

(٢) هو الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣ م) صاحب الفلسفة التجريبية والمنطق الاستقرائى • أصدر فى سنة ١٨٤٨ م كتابه [مبادىء الاقتصاد السياسى] كما اشتهر بافكاره عن حرية المرأة ومذاهب المنفعة • والحرية -

هو الذى أخذ على نفسه المدافعة عنه أمام المجلس • فاكتسب فى الحال ثمانين صوتا من النواب • كما أذكر من بينهم « ديزرائيلى » (١) و « غلادستون » (٢) • وفى سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانيا ونال ١٥٩ صوتا وفى سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتا ومازال يتقدم من حين الى حين ويكسب أصواتا جديدة حتى توفرت له الأغلبية فى سنة ٩٧ فأقر عليه مجلس النواب ولم يبق لنفاذه الا تصديق مجلس الأعيان •

وفى فرنسا لم تصل حركة الأفكار فى شأن النساء الى هذا الحد ، فعدد المشتغلات من النساء بممارسة العلوم قليل ، وعدد الموظفات فى المصالح الأميرية يكاد يكون محصورا فى مصلحة البوستة والتغراف والتليفون ، والحرفة التى اتجهت اليها على الخصوص نساء فرنسا هى التجارة ، وقد خاب ظن « فيكتور هيجو » (٣) • أكبر شعراء العصر فى فرنسا الذى قال : (ان القرن الثامن عشر قرر حقوق الرجال ، وسيقرر القرن التاسع عشر حقوق النساء) حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شيء كبير من الاصلاحات التى يطالب بها كثير من رجال فرنسا ، غير أنه فى هذه السنين العشر الأخيرة حصل تقدم محسوس فى حركة الأفكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب فى المجالس التجارية ، وفى العام الماضى صدر القانون الذى يخول النساء الاحتراف بصنعة المحاماة •

وحال النساء فى الممالك الأوروباوية الأخرى لا يختلف الا قليلا عن حال النساء فى فرنسا •

(١) بنيامين ايرل بيكنسفيلد (٨٠٤ ـ ١٨٨١ م) سياسى انجليزى • من أصل يهودى • تزعم حزب المحافظين وتولى رئاسة الحكومة ، ولعب دورا هاما فى سياسة بريطانيا الاستعمارية • كما كان مؤلفا كذلك •

(٢) وليم ايوارت (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م) من الساسة الانجليز فى القرن الماضى ، تزعم حزب الأحرار ، ووصل الى رئاسة الوزارة •

(٣) فيكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ م) أشهر أدباء فرنسا فى عصره ، وهو شاعر وروائى وكاتب مسرحى ، وأعظم رواياته رواية البؤساء •

أما مملكة روسيا فمركزها الجغرافى قضى بأن تتأثر بالعادات الشرقية ، ولهذا فقد عاش نساؤها من أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبـات ، كنساء الشرق ، مسجونـات فى البيوت ، محرومات من التربية والتعليم • وليس لهن من الحقوق الا ما تسمح به رحمة أزواجهن وأوليائهن ، ولم تبطل هذه العـادة من البـلاد الروسية الا فى سنة ١٧٢٦ حيث صـدر أمـر عـال من « بطرس الأكبر » (١) بالغاء الحجاب مرة واحدة ، ثم تولت بعده الامبراطورة « كاترين » (٢) فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ الى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ، ونشرت بينهن التربية العقلية والأدبية •

ولكن لما تولى الملك الكسندر الأول (٣) ، وكان يبغض الحرية ، وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكســندر الثانى (٤) ، وكان ميالا الى ترقية بلاده محبا لتقدمها فأبطل استعباد الرجال (السرفاج) وأنشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليمين الابتـدائى والثـانوى كن يتعلمن فيها العلوم التى يتعلمها الذكور ، وأول مدرسة أنشئت على هذا النمط كانت فى سنة ١٨٥٧ ، ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية أن تقدم النساء فى المعارف له أثر كبير فى حالة الأمة السياسية ، وأن حزب المعارضين للحكومة أخذ ينمو فاقفلت فى سنة ١٨٦٢ أبواب المدارس العالية

---

(١) بطرس الأكبر (١٦٧٢ ــ ١٧٢٥ م) هو بطرس الأول قيصر روسيا ومؤسس دولتها الحديثة الذى أدخل فيها نمط التمدن الغربى • وبدأ فيها عصر الصناعة •

(٢) كاترين الثانية ، أو كاترين العظمى (١٧٢٩ ــ ١٧٩٦ م) امبراطورة روسيا وقيصرتها • لعبت دورا بارزا فى سياسة روسيا التوسعية والاستعمارية فى القرن الثامن عشر •

(٣) الكسندر الأول (١٧٧٧ ــ ١٨٢٥ م) حكم القيصرية الروسية من سنة ١٨٠١ حتى سنة ١٨٢٥ م •

(٤) الكسندر الثانى (١٨١٨ ــ ١٨٨١ م) حكم روسيا من سنة ١٨٥٥ حتى سنة ١٨٨١ م •

فى وجوه الرجال والنساء ، ولكن النساء لم يقبلن أن ينتكسن فى الجهل بعد أن ذقن طعم الحرية والعلم • فرحل الكثير منهن عن وطنه طلبا للمعارف • وأخذن يهاجرن الى فرنسا وسويسرا وألمانيا لتحصيلها وطفقن فى مهاجرهن يطعن فى الحكومة وينشرن أفكارهن فى الكتب والجرائد ويشتركن فى المؤتمرات مع الرجـــال فكانت عاقبة اقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل • فطنت الحكومة الى هذا الأمر وعرفت أنها أخطـــأت ، فقـــررت فى ١٨٨٩ اعادة تلك المدارس ، وقد زاد عددها من ذلك العهد الى الآن زيادة ظاهرة •

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة فى العالم • نلخصـــه فى كلمتين :

عاشت المرأة حرة فى العصور الأولى حيث كانت الانسانية لم تزل فى مهدها •

ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الاستعباد الحقيقى •

ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صـــورة هذا الرق • واعترف للمرأة بشىء من الحق ، ولكن خضعت لاســتبداد الرجل الذى قضى عليها بألا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها •

ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة والرجل فى جميع الحقوق • أو على الأقل فى معظمهـــا •

أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن فى العالم •

فالمرأة المصرية هى اليوم فى الدور الثـــالث من حياتهـــا التاريخية • بمعنى أنها فى نظر الشرع انسان حر له حقوق وعليه

واجبات . ولكنها فى نظر رئيس العائلة وفى معاملته لها ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية . وهذه الحال التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى يخضعنا ونخضع له .

ومع أن الاستبداد السياسى أصبح فى حالة النزع . وأشرف على الفوات ، بحيث لاترجى له عودة ، لا يزال الرجـــال عنـــدنا يستبدون على نسائهم .

وما سبب ذلك الا أن قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل أن نرتقى ، وسبقتنا الى ما لم نصل اليه بعد ، فهى تقرر أن كل فرد منا له أن يتمتع بحريتـــه وحقوقه الشرعية ، لا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى ، ونحن معاشر الرجال لم يزل راسخا فى طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء .

وهذا يدل على أن سلطان الأخلاق القديمة لا يزال نافذا فى نفوسنا ، وله أثر ظاهر فى أعمالنـــا ، فقوانيننا وضعت لأمة حرة وأخلاقنا لا تزال أخلاق أمة مسترقة ! لهذا نرى رجالا وردوا موارد العلم ، وتنقلوا من مدرسة الى مدرسة ، ومن درجة الى درجة ، حتى حازوا على لقب علمى ، وفقهاء يعلمون الحقوق ، وشعراء من نوابغ العصر ، على ما يقول العارفون بفنهم وكتابا نصبوا أنفسهم لافادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية أو الأدبية أو الفنية أو ما شئت من هذه الألقاب . وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال . رأينا جميع من ذكرنا وعندما سمعوا القول بأن للمرأة حقا مهضوما . وأنها انسان محروم ، وأخذوا يتساءلون : هل يسوغ لها أن تخرج من سجنها ؟ أو يرفع عنها غطاء من جهلها ؟ وبعد طول التساؤل رجعوا الى ما هو مركوز فى طباعهم فأنكروا عليها هذا الحق . وحكموا عليها بأن تبقى فى ظلمات الجهل وفى السجن المؤبد ؟

فهل كان ذلك لان المسالة عويصة تحتاج الى العناء فى حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؟ كلا ، وانما نحن نتصـــور الجرية ، ولا نشعر في الحقيقة بحبها ، ونعرف حق الغير ولا نجد من أنفسنا احتراما له • نحن في دوز التمرين على العمل بالأخلاق الحرة ، ونحتاج الى زمن لترسخ في نفوسنا ، أما الأوربيون فانهم يقدرون الحرية حق قدرها ، ويحبونها ويحترمونها فى غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها فى أنفسهم •

وهذا شأن من له احساس حقيقى بمزية فضيلة من الفضائل• فانمـا الفاضل من يجـــل الفضيلة أينما كان مظهـــرها ، قال « كوندوروسية » (١) ، الأصولى الشهير في هذا المعنى : أما أن لا يكون حق حقيقي لأحد من الناس واما أن يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر • ومن جرد غيره من حقه مهما كان دينه أو لونه أو صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه •

لهذا يشتغل محبو الترقى فى أوروبا وأمريكا لتحسين حال المرأة وايصالهــا من الكمال فوق ما وصلت اليـــه الآن • وآلوا على أنفسهم أن يجاهدوا فى هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم فى جميع الحقوق الانسانية •

ولا أنكر أن عددا غير قليل من الغربيين لم يزل يجـــادل فى صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين •

---

(١) مارى جان أنطوان كوندورسية (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤ م) فيلسوف ورياضى فرنسى • اشترك فى الثورة الفرنسية • ثم اختلف مع بعض قادتها • والف كتابا هاما عن التقدم الانسانى • حتى الثورة الفرنسية •

فهناك مذهبان يتزاحمان :

أحدهما : يكتفى بما وصلت اليه المرأة الغربيـــة من الحرية والحقوق ٠

والثانى : يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين٠

هكذا انقسم العالم الانسانى فى كل أمر الى فريقين ، فريق المحافظين ، وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير ويطلب الســـعادة للنوع ولكنهما يختلفان فى طريق الخير وسبل السعادة ٠

ومن تتبع سلسلة التاريخ فى جميع الأزمان يعلم علم اليقين ان المرأة فى كل زمان وفى كل مكان قائمة بوظيفتها الطبيعيـة ٠ ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد الى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير فى طريق الكمال التدريجى متنقلة من منزلة الى أرقى منها ومن مرتبة الى أرفع منها ٠

فالقول بلزوم بقائهــا على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التى قضت بتغير حالها فى الماضى وتهيئتها الآن للانتقال من طورها الحالى الى طور آخر ٠ وبالجملة ٠ فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشؤه أن الغربيين فهموا طبيعـة الانسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا أنفسهم من الحقوق فى جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها أحد منهم فى حق التمتع بحريتها فى الأعمال البدنية والعقلية ٠ الا ما حرمته الآداب وسووا بينها وبين الرجل فى كل ذلك ، وانما اختلفوا فى مسألة مساواتها بالرجل فى الحياة العامة فيرى بعضهم أن اشتغالها بالأعمال يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امرأة فقرروا المساواة بينها وبين الرجل أيضا فيما يتعلق بالحياة العــامة ٠

أما نحن فاننا لا ننظر الى المرأة نظرنا الى الرجل ، ولم تستعد عقولنا الى ادراك هذه الحقيقة الظاهرة وهى أن المرأة انسان مثل الرجل ، فجردناها عن استعمال جميع حقوق الانسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة ، أما اشتغال المرأة بالأعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبتنا فى هذا الكتاب ، ولهذا لا نرى فائدة في الكلام فيه • وأما ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذى نقصد البحث فيه ، وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل :

الأولى : حرية المرأة •

الثانية : الواجب على المرأة لنفسها •

الثالثة : الواجب على المرأة لعائلتها •

وسنتكلم عليها على هذا الترتيب ويلى ذلك مبحث فى التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوي على حالة الأفكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء •

حــرية المــرأة

لم يخطىء قدماء الفلاسفة (١) في مســألة خطئهم في معنى الحرية الانسانية • وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله خلق الناس على قسمين : قسم : ميزه بالحرية ، والقسم الآخــر : قضى عليه بالرق •

وكانت معيشة الأحرار بعيدة عن الاستقلال ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة •

والتاريخ يحدثنا بأن الحكومة في تلك الأعصر الحالية كانت تتداخل في كل ما يتعلق بالحياة الخاصة ، وكان لها الشأن الأول في نظام العائلة والتربية والديانة والأخلاق والعواطف • حتى انها كانت تحدد في المعاملات التجارية أثمان البضائع • وقد وصلت بها الأثرة بالتداخل في شئون الحياة الخاصة الى حد أن قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهن الا في أحوال مبينة • فكانت المعيشة الاجتماعية هي أشــبه شيء بالعيشــة العسكرية ، يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين الا أن يطيعوا أوامره •

---

(١) المراد هنا فلاسفة اليونان • ولقد جاء فكرهم عن الحرية على هذا النحو لأن الرق كان ركنا من أركان المجتمع الذي عاشوا فيه • ومن هنا • كذلك • كان تمميزهم • الذي أبرزه • بين العمل الذهني والعمل اليدوي •

ولما تقدم العالم في المدنية تخلص الفرد شيئا فشيئا من سلطة الهيئة الاجتماعية . ووسع في دائرة حريته . وانعكس الأمر . فما كان في السابق أصلا عاما أصبح الآن من المستثنيات . ومن ثم صارت غاية التمدن أن ينال الفرد أقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية .

ذلك لأن الانسان ترقى في فكره . فهوى يرى أن تسليم نفسه الى تصرف الحاكم أمر لاتسلم به لنزلته من الانسانية . ولا يتفق مع راحته وسعادته . ولهذا فهو لايقبل ان يتنازل لأحد عن حريته . ولا أن يأتمن أحدا عليها ولو كان أقرب الناس اليه . ولا يسمح بأن يترك منها الى الحكومة الا بقدر ما يلزم تركه لتتمكن من تأدية وظيفتها وهى المحافظة على الأمن العام فى الداخل والمدافعة عن سياج الأمة فى الخارج . وأيضا القيام بالأعمال التى تعود منفعتها على الجميع .

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد الى ما تقرره عليه من الأعمال والأموال ، أما اذا أرادت الحكومة أو أى فرد من الناس أن يدخل فى عمل من أعماله أو شأن من شئونه الخاصة فانه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد فى نفسه ألم الظلم .

ولذلك سببان :

الأول : ان رأى الحاكم أن طابق هوى شخص فقد يخالف أهواء الأغلب .. لأن الأمزجة مختلفة والغرائز متباينة والأذواق متفاوتة على حسب الأشخاص والأعمار والأزمان والأمكنة . فوضع قاعدة واحدة لجميع الأعمال الخاصة بكل فرد لايسهل على الطبائع البشرية قبوله .

والثانى : ما دلت عليه التجارب من أن تداخل الحاكم فى

الشئون الخاصة للأفراد يضعف من قواهم • ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها • ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمـــــل • والاتكال على الغير • وهو وان أشعر بعض النفوس لذة الكســـل عاقبة اقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل • والخلود الى الراحة لكنه يعود عليها بالخسة وشقاء المعيشة •

فالحرية هى قاعدة ترقى النوع الانسانى ومعراجه الى السعادة ولذلك عدتهـــا الأمم التى أدركت سر النجـــاح من أنفس حقوق الانســـان •

ومن المعلوم أن المقصود من الحرية هنا هو استقلال الانسان فى فكره وارادته وعمله متى كان واقفا عند حدود الشرائع محافظا على الآداب ، وعدم خضوعه بعد ذلك فى شىء لارادة غيره • اللهم الا فى أحوال مستثناة كالجنون والطفولية ، حتى بالنسبة للأطفال رأى علماء التربية الصحية أن الضغط على الأطفال مميت لعزيمتهم، ورجحوا أن يترك الطفل يتصرف فى نفسه بحرية ، وانما على والديه ارشاده ونصحه •

فهذه الحرية على ما بها من ســـعة هى التى يجب ان تكون أساسا لتربية نسائنـــا • يتعجب بعض النـــاس من طلبى تخويل الحرية للنساء ، ويتساءلون : هل هن فى قيد الرق ؟ ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا فى الرأى :

ليس مرادنا أن نقول ان المرأة اليـــوم تبـــاع وتشترى فى الأسواق ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذى يباح الاتجـــار به فقط ، بل الوجدان السليم يقضى بأن كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله ملكا تاما فهو رقيق ! •

لا أظن أن القارىء يختلف معى فى الرأى أن قلت : ان المرأة

فى نظر المسلمين • على الجملة ، ليست انسانا تاما ، وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ، ويجرى فى معاملته معها على هذا الاعتقاد ، والشواهد على ذلك كثيرة •

فليس من الأدب فى كثير من العائلات ألا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الأدب أن تجلس النساء مع الرجال ، ولا من الأدب أن يأكلن معهم ، وقد رأيت مرارا بعينى أن الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمـــة تطرد الذباب عنــه وبنتــه تحمل قلة الماء •

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد فى الغالب فى بعض الطبقات ، خصوصا فى بلاد الأرياف ، لكن استعباد المرأة فى الطبقات الأخرى وفى المدن موجود على أشكال أخـــرى •

فالرجل الذى يحجر على امرأته ألا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته فى أن لاتخرج لا يحترم حريتها ، فهى من هذه الجهة رقيقة ، بل سجينة ، والسجن أشد سلبا للحرية من الرق • ولا يقال ان عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلا ، فانه وان قل بالنسبة الى الماضى لكن كلنا نعلم أن من النادر جدا أن تكون المرأة متروكة لارادتها واختيارها فى ذهابها وايابها على أن كلامنا الآن انما هو فى مقام المرأة فى نفس أغلب الرجال وما يجب عليها فى اعتقادهم أن تعمل به وان تكون عليه • فسواء قل احتباس المرأة أو لم يقل فالمرأة المقصورة فى بيتها التى لاتفارقه عندهم خير امرأة •

ولو أخذ المسلمون برأى الجهال من فقهائهم • وهم أهل الرأى عندهم ، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نساءهم وألا يسمحوا لهن بالخروج الا لزيارة الأقارب فى العيدين ، ورأوا من الأفضـــل

ألا تخرج من بيتها فى جميع الأحوال ، وقد عدوا من مفاخرهم ألا تخرج المرأة من خدرها الا محمولة الى قبرها ! •

ولا شك أن تقرير الحق للرجل فى سجن زوجته ينافى الحرية التى هى حق طبيعى للانسان •

والمرأة التى يسوقها والدها كالبهيمة الى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئا من أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة أمره وتحصل لنفسها رأيا فيه لا تعتبر حرة فى نفسها ، بل تعد فى الحقيقة رقيقة ، ومن المعلوم أن عموم الآباء فى جميع طبقات الأمه يزوجون بناتهم على هذه الطريقة ، فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج ، أما هن فلا رأى لهن فى هذا الأمر الخطير الذى تتعلق به سعادتهن وشقاؤهن فى المستقبل ، ولا يقال ان حال الرجل فى ذلك كحال المرأة اذ هو أيضا لا يعلم من أحوال مخطوبته شيئا ، لأن الرجل يمكنه أن يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها فى أى وقت شاء أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث وربـاع ، أما المرأة التى تبتلى برجل لاترضى نفسها بمعاشرته فليس لهـا الى الخلاص منه سبيل ، فتزويج المرأة برجل تجهله ، وحرمانها حق التخلص منه • ومع اطلاق الارادة للرجل فى امساكها وتسريحها كيف يشاء ، هو استعباد حقيقى •

والمرأة التى يجب ألا تتعلم فروض العبادة ، كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم ، أو يجب ألا تتعلم الا مقدارا محدودا من مبادئ بعض العلوم ، تحسب رقيقة ، لأن قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو الى أن تبلغ الكمال الذى أعدت له يعد استعبادا معنويا •

والمرأة التى تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشى ولا الركوب ، بل لاتتنفس ولا تنظر

ولا تتكلم الا بمشقة ، تعد رقيقة ، لأن تكليفها بالاندراج فى قطعة من قماش انما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الانسانى الطبيعى فى نظر كل رجل ما عدا سيدها ومولاها ٠

وبالجملة ، فالمرأة من وقت ولادتها الى يوم مماتها هى رقيقة ، لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها ، وانما تعيش بالرجل وللرجل ٠ وهى فى حاجة اليه فى كل شأن من شئونها ، لا تخرج الا مخفورة به ٠ ولا تسافر الا تحت حمايته ولا تفكر الا بعقله ، ولا تنظر الا بعينه ٠ ولا تسمع الا باذنه ٠ ولا تريد الا بارادته ولا تعمل الا بواسطته ، ولا تتحرك بحركة الا ويكون مجراها منه ٠ فهى بذلك لا تعد انسانا مستقلا ٠ بل هى شىء ملحق بالرجال ٠

انظر الى صبى لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة ، وقارن بينه وبين والدته ، تجد أنها أحط منه فى العقل والمعلومات والتجارب ٠ وأنه أكبر منها شأنا ، ليس فقط فيما يتعلق بالأمور الخارجة عن المنزل بل فى نفس بيتها ٠

كيف لا وهو الذى يأمر وينهى فيه ٠ وهو الذى ينوب عنها فى اشغالها وادارة بيتها وتدبير ثروتها ؟

أنظر الى امرأة تمشى فى الطريق ، ومعها خادم ، تجد فى نفسك لأول وهلة أن الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الارادة والرأى والقوة ، وكأن لسان حاله يقول : انى أؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها ٠ لاحظ أن امرأة محجبة تمر على جماعة من أهل الخلاعة تجد انهم لايتحاشون من أسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالأدب ٠ وفى بعض الأحيان يترامون عليها بأجسامهم ويلمسونها بأيديهم مع أنه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الأفعال القبيحة ، لم تصبر المرأة على هذا

الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث الى دفاع ؟ ولم لايجرؤ هؤلاء الرجال على اتيان ما يأتونه من الأقوال والأعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة أشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلا وانما وقر فى نفوس الرجال عندنا أن البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع، ورأوا فى عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ، ولا تحس باحترامها لنفسها ، وأنها سهلة القياد ٠ لينة المغمز ، تتبعه لأول اشارة بيدها أو كلمة يرميها ، وأنها تخشى الرجل ولا تجرؤ على تأديبه ، فاستخفوا بها ، وتجاسروا على امتهانها ، وتعودوا على ألا يحترموا امرأة مبرقعة الا اذا وجد معها رجل ولو كان خصيا !

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس انسان ؟

سيقول قوم : كيف لمدع أن يدعى أن المرأة مستعبدة عندنا ، مع انا نراها في مكانة من السلطان على قلب الرجل منا بحيث تسخره لارادتها وأهوائها ، وتصرفه عن أعماله لقضاء رغائبها ، وأن الرجل ليتجشم الأسفار ويتردد بين المدينة والأخرى لينتقى لزوجته لباسا أو يختار لها نوعا من أنواع الحلى يرضى بها هواها ويقضى به رغبتها ليستجلب رضاها ، ثم هى سيدة بيته ٠ لايرفع فيه الا ما رفعت ولا يضع فيه الا ما وضعت ، فهل مع هذا كله يقال ان المرأة مسترقة للرجل ؟ نعم ، لا ننكر شيئا من هذا كله ، ولكننا ننكر أن يكون ذلك عاما عند جميع الناس ، كما ننكر أنه ناشىء عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والأدب وما كسبته من حق الصحبة الناشىء عن عقد الزواج ، وانما يرفع المرأة أحيانا الى تلك المنزلة افراط فى الشهوة من الرجل يحدثه براعة فى الجمال أو تفنن فى ضروب الاحتيال ، فهى سيدته ما تعلقت بها شهوته ، فاذا خمدت نيران الشهوة وعاد

ما بينهما الى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها الى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق ·

سيقال أيضا : ان حرية المرأة تستلزم فى الواقع أن يعاملها الرجل باحترام ، والا يضغط على ارادتها وفكرها · وأن يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ، ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتهـــا لهم فالجواب : ان الزام النساء بالاحتجاب هو اقسى وأفظع اشـكال الاستعباد . ذلك لأن الرجال فى أعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء ، اما بالشراء كما بيناه واما بالاختطاف ·

وفى كلتا الحالتين كانوا يعتبرون أنفسهم مالكين نساءهم ملكا تاما وتبع ذلك أن الرجـــل جرد امرأته عن الصفات الانسانيـــه وخصصها بوظيفة واحـــدة وهى أن تمتعه بجسمها · فأقرها فى مسكنه · وألزمها بأن تلازمه ولا تخرج منه حتى لايكون لأحد غيره حظ فى أن يتمتع بها ولو بالنظر أو الحديث . شأن المالك الحريص على ملكه الذى يريد أن يستأثر بجميع مزايا المتاع الذى يملكه ·

ولما كان من المحـــال ألا تعـرض ضرورة تقضى على المرأة بالخروج من منزلها فى بعض الأحيان أراد أن يتبعهـــا بالحجاب حيث سارت فالزمها بستر وجهها اذا خرجت ·

هذا الحجاب الذى قرره الرجل فى الأصل على زوجته تعدى بعد ذلك الى البنات والأمهات والأخوات والى عموم النساء ، لأن كل امرأة هى زوجة أو كانت زوجة أو مستعدة لأن تكون زوجة ·

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم ، وأثر من أثار تلك الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الانسانية أجيالا قبل أن تهتدى الى ادراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجـرد

كونها أنثى ، كما اهتدت الى أن تفهم أن سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبد للأبيض .

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذى أوجده ، أى بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل ، فقد جرت سنة الله فى خلقه بأن الانتقال من طور الى طور آخر لايكون دفعة واحدة . وانمـــا يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بهـــا من كانوا موضوعا لها ، فكثيرا ما يظن الناس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات مع انهم ســـائرون عنها منتقلون الى غـيرها متحولون الى أرادا أو أحسن منها . وهـــم لا يشعرون ، حتى اذا انتهت الحركة الى غايتها ظهر لهم انهم صاروا الى الطور الذى كانوا من قبل ينكرون.

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان تعيش النساء فى حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان . لكنه ناقص غير تام ، كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التى كانت ملكا له بالأمس مساوية له اليوم ، فحسن لديه أن يضعها فى مرتبة أقل منه فى الخلقة . وزعم أن الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات ، وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم أن تعيش غيرمستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقتصر فى بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى تفتنهم بجمالها أو تخدعهم بحيلها ، وانها ليست أهلا للرقى العقلى والأدبى فيلزم ان تعيش جاهلة .

وذلك هو السر فى ضرب الحجاب . وعلة بقـائه الى الآن . فأول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة هو تمزيق الحجـــاب ومحو آثاره .

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هى الحجة التى اتخذها

الرجل لاستعبادها وجب علينا أن نبحث فى طبيعة المرأة لنعلم ان كانت ، كما يقال ، أحط من طبيعة الرجل أم لا ؟ ٠

اذا سألنا الرأى العام فالجواب سهل معلوم ٠

ولكن الرأى العام لا يصح أن يكون له صوت فى مسـألة علمية كهذه ، لأن مبنى الرأى العام القضايا المشهورة ، التى صاغتها العادة وقررتها الألفة بدون بحث ولا تنقيب ، فهى مرجع العامة فى أحكامها يردون اليها كل حـادث طبيعى أو اجتماعى لا يعرفون أسبابه ، والرأى العام يعتبر أن تغير كل عادة ألفها مخالف للطبيعة لأنه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن أن ما هو حاصل الآن كان كذلك وسيبقى الى الأبد ٠

ولا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل فى الجملة ، ولكن علينا أن ننظـر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طـرق تربيتهـا ؟

تلك هى المسألة التى يلزمنا لحلها أن نرجع الى الأصـول العلمية لنعلم ما تقرره فيها ٠

رأى العلماء أنه لا يصـح الحـكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الانسانى بآثارها التى صدرت منها الى الآن ٠

وانما يصح ذلك بعد أن تملك من حريتها ما يملك الرجـل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تسـاوى المدة التى قضاها الرجل فى تربية ملكاتهم العقلية والأدبية ، غير أنهم حكموا بأن المرأة ليست مثل الرجل فى الخلقة وأنه يوجـد بين الصنفين اختلافات تشريحـة وفسيلوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ، ولكن ليس فى هذه الاختلافات ما يدل على أن أحد الصنفين أرقى من الآخر أو أحط منه ٠

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة « جاك لوربيب » فى كتابه المسمى [المرأة أمام المعلم] .

وقال الأستاذ فرشلو : « انى ألقيت دروسا كثيرة فى العلوم الحسابية وعلوم الأخلاق والفلسفة لطلبة العلم ، وكان بينهم كثير من النساء ، والذى شاهدته بنفسى هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين ، وكانت نسبة الدرجات بينهما واحدة » .

وقال العلامة « ما نتجازا » ، المدرس لعلم الانسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطليانى فى كتاب جديد سماه [فسلوجيا المرأة] : « جميع المناقشات عبث اذا أريد أن يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ما أكفر الرجل ! الجاه كبره أن يزور حتى فى علم التشريح ، فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول فى العالم ، بل أراد أن يبرهن أن المرأة أقل منه فى الانسانية وأنها فى مرتبة بين القرد والانسان ، ولهذا فيكون له الحق فى أن يجردها عن الحقوق التى منحها نفسه كأنه نسى أن الذات التى يريد أن يحط بقدرها هى امه ، والحقيقة أن المرأة أمام علم التشريح ليست أقل درجة من الرجل ولا أرقى منه ، وانما تختلف عنه ، لأن لها وظائف تقوم بها غير وظائف الرجل » .

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التى توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للاحساسات والعواطف ، فقال ما ملخصه :

« ان السبب فى أهم ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الأدبية هو الاستعباد الذى استولى على المرأة زمانا طويلا حيث تغلب الرجل على المرأة فى الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفى الطبقات الأخرى بعلو معارفه وتربيته ، وهذه المنزلة المنحطة قضت على

المرأة بأن تستعمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها ، ويظهر أن الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات فى أعماله ، ولكنها تمتاز عليه في قوة الاحساس وتحمــل الآلام ، وهى تصبر على الأمراض والعمليات الجراحية صبرا يعجز عنه الرجل ، وربما كان السبب فى ذلك أنها أقل أثرة من الرجل أو أنهــا اعتادت على الاستسلام والخضوع .

وتمتاز المرأة على الرجل أيضا بأنها أضعف شهوة منه ، فالحب عند الرجل ميل شهوانى الى استيفاء اللذة الجسدية ، والحب عند المرأة وداد قلبى غايته امتزاج الروحين ، واســـتدل على ذلك بأن الرجال يستعملون جميع أنواع الحيـــل والخديعة مع النســـاء لاستمالتهن ، والكثير منهن مع ذلك يدافعن عن عرضـــهن ويتغلبن على شهواتهن وقال : انه اذا عكس الأمر وفرضنا انه أبيح للنساء أن يستعملن مع الرجال لاســـتمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل أن يحافظ على عفته ! .

وقال : « ان حب المرأة للخــير مــن المألوفات المشهورة ، أما الرجل فيسود عنده حب النفس ، لذلك تراه يفتكر أولا فى نفسه ثم فى أولاده ، بخلاف المرأة ، فهى تفكر أولا فى غيرها ثم فى نفسها ، فهم الرجل أن يكون سعيدا ، وهم المرأة أن تجعل الغير سعيدا ، وهذا الاحساس يشاهد فى جميع أعمال الحياة ، صغيرها وكبيرها ، وأعظم مثال لايثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها ، فهى تحبه أكثر مما يحبه أبوه ، وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن أن يقال انه كلما كان والدها سيء البخت زاد حبها له ، والأب على عكس ذلك » .

فالمرأة فى رأى أعظم العلماء وأدقهم بحثا مساوية للرجل فى القوى العقلية ، وتفوقه فى الاحساسات والعواطف ، وانما يظهر

للناظر وجود فرق عظيم بينهما فى العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالا عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النســاء فانهن حرمن من كل تربية ، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعى لا طبيعى .

لانريد بهذا التساوى أن كل قوة فى المرأة تساوى كل قوة فى الرجل وكل ملكه فيها تساوى كل ملكة فيه ، ولكنا نريــد أن مجموع قواها وملكاتها يكافىء مجموع قواه وملكاته وان كان يوجد خلاف كبير بينهما ، لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخــــر .

فعلى أى دليل علمى يستند الرجال لاستعباد النساء ، وبأى حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن ؟ لنفرض جدلا أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل ، فهل نقصان العقل فى شخص يبيح أن يجرد من حريته ؟ اما يوجد بين أفراد الرجال اختلاف فى العقول أكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء ؟ أليس عقل المصرى يختلف باختــــلاف طبقات الأمة المصرية ، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين فى تمتعهم بحريتهم البدنية ؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن أكبر عقلا وأكمل اخلاقا من أزواجهن أو آبائهن أو أبنائهن ؟ .

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الانسان عن حريته بل الذى يجر اليه الاختلاف انما هو أن يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع أو تسود ارادة على ارادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها .

ما قررته الشريعة الاسلامية من حقوق المرأة ــ وقد أشرنا اليه فى ما تقدم ــ يقودنا الى ان هذه السلطة الأدبية هى التى ترمى اليها الآية الشريفة التى ذكرت ان الرجال قوامون على النساء ، وقد نحت

الشرائع الأوربية هذا النحو فخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ، ومع ذلك فكل انسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن •

ولنفرض جدلا أيضا ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفي ذلك لحرمانهن من حريتهن ؟ •

اذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة الى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا الى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج فى عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟ •

نرى أن مسئولية المرأة فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة ، لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل ، ونرى أن القوانين لا تعافيها من العقوبات اذا ارتكبت جريمة • ولا تقضى بتخفيف عقوبتها • بل نرى ان الرأى العام جسم مسئوليتها حتى جعلها أشد من مسئولية الرجل ، فاذا استهوى رجل عمره أربعون سنة بنتا عمرها خمس عشرة سنة ، وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأى العام ان هذه البنت الصغيرة هى التى فقدت شرفها ، ويهمل شأن الرجل كأنه لم يأت منكرا ! أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن أعمالها ؟ فان كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان أيضا بأنها حرة مختارة ؟ •

لا أظن ان عقلا يقبل ان تعتبر المرأة انسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت ، ثم تعتبر أنها ناقصة العقل ، بحيث تحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية ! •

اعتقاد الرجل ان امرأته اذا منحت حريتها تسىء استعمالها

لا يبيح له حرمانها منها ، لأنه لا يباح لانسان أن يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على ارادته بحجة أنه يريد منعه من ارتكاب خطيئة . ولو جاز لدفع ضرر محتمل الوقوع تجريد الانسان عن حريته لوجب وضع تسعين فى المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعا لهم من الفساد ! .

بل لو قبلت المرأة أن يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاما صحيحا بحيث يمتنع عليها بعد ذلك أن تحل عقدته ، لأنه التزام باطل ، لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية .

على أن ما قيل من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له ، تبطله التجارب وينبذه العقل ، اذ أن التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد فى ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن احساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن .

ولا نذهب فى تأييد هذا الرأى مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم فى الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ، ونسب فيه الى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأة الألمانية تخون زوجها سبع مرات ! والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة ! والهولندية أربع مرات ! والطليانية مرة وخمسة أسداس ! والفرنساوية مرة واحدة ! وهكذا الى أن وصل الى التركية ، والمراد بها الشرقية ، انها لا تخون زوجها الا عشر المرة الواحدة ! .

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الاحصاد الى الاعتقاد بأن ما نشر فى تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من (الأبحاث العلمية الدقيقة المستندة على الأرقام) ، ولم يمر بفكره أن الحصول على احصاء فى مثل هذا الموضوع هو من الأمور المستحيلة ، لأن وقائع الزنا لا يمكن احصاؤها الا اذا وصلت المحاكم ، ومعلوم انه لا يصل الى المحاكم منها الا النادر :

ولا نسند رأينا الى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل ، كما يفعل أولئك الذين يدعون أن المرأة متى جلست مع الرجال فى مكان واحد مدة خمس دقائق وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات ! • فان كل قضية لا ترجع الى أحد أنواع البديهات المعروفة عند أهل النظر لا تصح أن تكون مقدمة لدليل ، اولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وجد فى خزانة مخه الا أن الرجل والمرأة هما دائما فى طوع شهواتهما ، هكذا شأنهم ، يستعملون من أنفسهم الأخلاق التى جبلوا عليها ، ويعتقدون أنها أخلاق الانسانية كلها ، فهم فى نظر أنفسهم يمثلون الرجل من حيث هو ، والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثل فى نظرهم المرأة من حيث هى ، وما دروا أن الرجال يختلفون فى أخلاقهم ومزاياهم الى ما لا نهاية له . على حسب الزمان والمكان وطرق التربية ، وأن المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجال •

هذا الاختلاف الذى يعرض فى حياة النساء الأدبية ينشأ غالبا من اختلاف العادات •

أول شىء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو أن تكون عفيفة ، ولهم الحق فى أن يطلبوا منها أن تكون متحلية بهذه الفضيلة ، ولكنهم بذلوا ما فى وسعهم لمحو هذه الفضيلة ، وجعلها من المستحيلات ، وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل الى الشهوات ، فان سجن المرأة والتضييق عليها فى وسائل الرياضة يعرضانها دائما لضعف الأعصاب ، ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية • هذه حقيقة يلزم أن يعترف بها كل انسان ، فان من الحقائق الثابتة ان الجسم اذا كان قويا وكان القلب يرسل الدم الى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الانسان بقوتها ، فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهى لا تضعف عن مقاومة الأهواء والنزعات الرديئة ، ومن المشاهد أن

التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور فى الجسم وانحلال فى القوى يؤثران فى الارادة وفى العزيمة · فكما اذا حاول الجسم نهوضا لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل الى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط أهوائها ومقاومة كل ميل تقتضي مدافعته جهدا ومشقة ·

لا شك أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم أعوان الانسان على ضبط نفسه ، وان ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الانسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء ·

فان كانت فى حاجة الى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فانى أنقل ما قاله رجل أجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلورى ·

قال فى كتابه المسمى [جسم وروح الولد] : « ان آلة العقل هى المخ ، فكل انحراف يعرض فى الصحة البدنية يؤثر فيه ، فاذا استوفينا شروط صحة الجسم أمكننا أن نحصل سلامة الارادة وقوة الحكم ونحسن فى أخلاق المرء وآدابه » ·

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شىء نساء مريضات . ولهذا فهن أشد تعرضا لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتى يتمتعن بحريتهن ! ·

فاذا اقترن الحجاب بالبطالة ، ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها · تبعهما قتل كل فضيلة فى نفس المرأة ·

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده ، وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل اوقاتهن ، وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سببا فى تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها الى أمور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها · ولكن نحن لا يهمنا الا تقرير

الحقيقة كما هي ، نحن نقول إن وجود الواجبات شيء والقيام بها شيء آخر وان نساءنا اللاتي لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لازواجهن وأولادهن ، وانهن تركن شئون الحياة البيتية الى غيرهن · بخلاف النساء العربيات اللاتي اتسعت دائرة أعمالهن حتى كادت تساوي دائرة اشغال الرجال ·· فانهن يجدن مع ذلك الوقت الكافي لتأدية جميع واجباتهن المنزلية وما سبب ذلك الا أن العمل يدعو الى العمل والراحة تدعو الى الراحة ·

ثم ان الطريقة التي يربى بها الأطفال في البيوت لها مدخل عظيم من انحطاط الآداب أيضا ·

يمكنني أن أجاهر هنا · بلا تردد · ان صبيا من أولادنا ، ذكرا كان أو أنثى · لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد الى ذهنه من الألفاظ والصور المحركة للشهوة ، وينمو في قلبه من الميل مع ما تدعو اليه غريزة التناسل ، ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب أو شابة في سن الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة من أبناء البلاد الأوربية ·

وليس لاختلاف الاقليم دخل في ذلك ، وان كان له أثر فهو أثر ضعيف ، وانما الأثر الحقيقي هو لطريقة تربية الأطفال ·

لو كان الرجال الأذكياء والمتعلمون منا يلاحظون ما يقع ويقال أمامهم كل يوم ، لو كانوا يفكرون في ما يعرض على أعينهم وآذانهم في الطرق والمجتمعات في كل آن لاتفقنا جميعا في هذه المسألة وغيرها من المسائل الأخرى التي لا سبب لاختلاف الرأي فيها الا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام أحد منا بأن يفهم ما يقول الآخر ·

لو أمكننا أن نفصل جميع المؤثرات المادية والأدبية التي تتكون

منها احساسات الطفل وأمياله لرأى القارىء بنفسه أن البنت التى تربى فى عائلة مصرية لا يمكن أن تنمو فيها خلال الفضائل ويكفينا أن نذكر هنا أمثالا من هذه المؤثرات التى تقع فى العائلات المتوسطة التى هى أحسن الطبقات أدبا ٠

فمنها أن أقارب الأطفال لا يتحاشون غالبا عن تسمية كل شىء باسمه الحقيقى ويذكرون الوقائع التى تجرى بين الزوج وزوجته أمامهم بدون أن يخطر على بالهم أن يأمرهم بالخروج فى هذا الوقت الى مكان آخر ، وأيضا أول شىء يأتى على لسان الزائر اذا صادف بنتا صغيرة فى بيت هو أن يسألها اذا كانت تريد أن تتزوجه أو تتزوج بابنـــه الصغير ، واذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن اعجبها من بينهم ! ٠

ومنها حضور الأطفال فى حفلات الأفلاح ، ومشاهدتهم رقص الباغيات ، وسماعهم الأغانى التى تدور كلها على الحب الشهوانى ٠

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة الى ما كان يجب أن تغفل عنه وينبت فيها الميل الشهوانى ٠

ثم اذا عرف أن بنتا عانقت صبيا فى أثناء اللعب يوجه اللوم عليها من أهلها ، ويقال لها انها أتت أمرا فاضحا ، فاذا سألت البنت : أى عيب فى ما فعلت ؟ أجابها المسئول بما يعن له وما تسمح له به تربيته ، وكلما تقدمت الصبية فى السن زاد الحجر عليهـا وابعادها عن مخالطة الرجال ، وفى هذا من استلفات ذهنها الى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها الى البحث فى هذا الأمر الذى يشغلها ويشغل أهلها الى هذا الحد ، فتسأل عنه من تثق به من زميلاتهـا . فتتعلم منهن بعضـــه ، وتشتعل مخيلتها بفهم الباقى

فهذه العيشة التى تمر على البنت ، وأهم ما فيها عندها الرجل

وأحواله ونسبها اليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه ، هى بلا ريب أعظم مؤثر فى مزاجهـا ، لأنها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الأول فى حياتها ·

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا ، وشعورهم بأن النساء لا هم لهن ولا شاغل لعقولهن الا شأنهن مع الرجال ، لا ترى رجلا بين المصريين يأتمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل أجنبى عنها ، وفى بعض البيوت لا يأتمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته أن تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضرا معهما ، وكذلك فى كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته ·

وليس من رأيى أن أعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض الى هذا الحد لأن عوائدنا وأخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بألا يثق بعضهم ببعض ، وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ، ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم الخلق ولا من حسن الأدب أدنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش ·

ولكن ليسمح لى القارىء أن آتى على بقية فكرى فأقول :

بقى الحجاب الى الآن مستمرا للأسباب التى بيناها ، أى لأنه كان تابعا لهيئتنا الاجتماعية الماضية ، من الجهة السياسية والعقلية والأدبية ، كنا محكومين بالاستبداد فظننا أن السـلطة العائليـة لا تؤسس الا على الاستبداد ، فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن ، وملكنا وحدنا حق قيد الزواج ، واستعملنا فى تربية أولادنا الأمر والنهى والاخافة والضرب ، وكنا جهالا فتخيلنا أن المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها الا أن تكون موضعا لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته ، وفاتنا أنها هى أيضا انسان مثلنا ، وأن لها الحق فى أن تسعى الى طلب سعادتها بالوسائل التى وضعها الشـارع

تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم . فلما أسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه ، فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت أخلاقنا وفسدت تربية أولادنا . واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا أن حياة الأمم الاسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبق لها فى التزاحم العام نصيب من النجاح ، وأخذوا يتباهون بالمدنية الاسلامية القديمة كلما تحدث الأوروبيون بعلومهم وفنونهم . ويفتخرون بالتمدن العربى فى الأعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربى الحديث ، كما تسلى نفسها عجوز وصلت الى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها

لكنا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييرا كليا ، فاصبحنا احرارا ونحب الحرية ، وبدأ التعليم الصحيح فى أن ينتشر بين أفراد أمتنا ، وتهيأت عقولنا الى ادراك منزلة الانسان فى الوجود ومرتبة المرأة فى البيت وشأنها فى العالم ، فهل يليق بنا بعد هذا أن نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة ، أو يكون من الأليق بنا أن نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التى انتقلنا اليها ويكون من شأنها أن ترتقى بنا الى ما هو خير منها ؟ .

وبعبارة أخرى : يوجد مذهبان احدهما : ينصح الناس بالتمسك بالحجاب .

والثانى : يشير عليهم بابطاله ، فأى هذين المذهبين يجب أن نختاره ؟ وما هو رائدنا فى الاختيار حتى لا نقع فى عاقبة الخطأ

أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ، ويمنعها من استكمال تربيتها ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة ، ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية ولا يأتى

معه وجود أمهــات قادرات على تربيــة أولادهن ، وبه تكون الأمة كانسان أصيب بالشلل فى أحد شقيه •

ومزاياه تنحصر فى أمر واحد هو أنه يقلل الزنا ، حيث يحول بين الصنفين ، ويمنع الاختلاط بينهما فى الظاهر ، وان لم ينزع الميل اليه من النفوس ، فيكون ما يسمونه عفة على حد ما قيل :

« ان من العصمة الا تجد » فالأجساد فى صيانة ، وأغلب القلوب فى خيانة ! •

وأما الحرية فمزاياها هى ازالة جميع المضار التى تنشأ عن الحجاب ، وسبق ذكرها وضررها الوحيد أنها فى مبدئها تؤدى الى سوء الاستعمال ، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة الى أن تعرف مسئوليتها وتتحمل تبعة أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسهــا والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية ، التى هى ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح ، لا خوفا من عقــاب ولا طمعا فى مكافأة ولا وجود حائل ليس فى الامكان ازالته بل لأنه قبيح فى نفسه •

وليس من الممكن أن تصل المرأة الى هذه المنزلة الأدبية ما دامت فى الحجاب ، ولكن من السهل جدا أن تصــل اليها بالحرية •

تصل اليها كما وصلت اليها غيرها من النساء الغربيات ، فانا نرى أنه كلما زيد فى حرية المرأة الغربية زاد عندها الشــــعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها •

قال الهامة « ماتنجازا » :

« أعظم شيء يؤثر فى أخلاق البنات الحرية التى تعطى اليهن من عهد طفولتهن » •

وقال :

« ان الفضائل الجليلة التى تشاهد عند النساء اللاتى يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تنسب الى الاقليم ، لأنى وجدت هذه الفضائل فى « بيونس ـ آيرس » التى تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها أديم السماء وتنمو فيها الثرثرة العمومية ، ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الأثر فى الأخلاق لفسدت أخلاق النساء فى تلك البلاد . كانت البنات من الاديرة الا عند الزواج ، وكن جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكن يتلقين دروس الحب من غير الزواج فى أغلب الأحيان ، ذلك لأن من القواعد العامة أن البنت التى لا تختار زوجها بل تكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التى توصلها الى الخطيئة ، فلا شىء يقى البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد أن تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال » .

وقال فى وصف نساء وطنه : « ان المرأة الطليانية أقل من غيرها عفة لأنها تتزوج غالبا من غير أن تحب زوجها . وكذلك الحال تقريبا فى نساء فرنسا » .

أما النساء الانكليزيات والأميريكانيات والألمانيات فأثنى على كمال عفتهن ونسبها الى طرق تربيتهن وتمتعهن بالحرية والاستقلال فى أعمال الحياة .

فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة . ولكن ما أعظم الفرق بينهما فى النتائج التى تترتب عليهما ! حيث أن الوسيلة الأولى تضع المرأة فى وصف الأدوات والأمتعة ، وتجنى على والانسانية . والثانية تخدم الانسانية . وتسوق المرأة فى طريق التقدم العقلى والكمال الأدبى .

فقد رأيت مما ذكرناه أن ما اخترناه فى تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنيا على أمر نظرى لا يستند الى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة .

وصل احترام الرجل الغربى لحرية المرأة الى حد أن الاب يخجل على نفسه فتح الخطابات التى ترد لبنته . وكذلك الزوج رأى الأجدر به ألا يفتح الخطاب الذى يرد الى امرأته • وهذه المسألة الأخيرة كانت موضـــوع بحث مهم بين أعضـــاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريبا ، وتقرر فيها أن سلطة الزوج لا تتيح له أن يطلع على أسرار زوجته لأن هذا العمل يعد تجسسا مهينا لحرية المرأة وشرفها •

نعم ، ان أغلب الزوجات يطلعن أزواجهن على ما يرد اليهن من الخطابات ، كما أن أغلب الأزواج يعرضـــون المراسلات التى ترد اليهم على زوجاتهم ، ولكن يوجد فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجبا بمقتضى حق يدعى •

بلغ من أمر احترام الرجل الغربى لحرية المرأة أن بنات فى سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرون من أمريكا الى أبعد مكان فى الأرض • وحدهن أو مع خادمة ، ويقضين الشـــهور والأعـــوام متغيبات فى السياحة ، متنقلات من بلد الى أخرى • ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن الى خطر ما •

كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، ورأى غير رأى الزوج ، وأن تنتمى لحزب غير الحزب الذى ينتمى اليه الزوج ، والرجل فى كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق فى أن تميل الى ما يوافق ذوقها وعقلها واحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التى تراها مستحسنة فى نظرها •

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت الغربيين قائما على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الأمم فى نمو مستمر ! ولم يحل بهم شىء من المصائب التى يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين أطالوا الكلام فى شرح المضـــار التى تنتج عن اطلاق الحرية للنساء ! فكثيرا

ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنســـاء يؤدى الى اختلاط الأنساب · وأنه متى اختلطت الأنساب وقعت الأمة فى هلاك ·

فهذه ممالك أوروبا جميعها نساؤها ورجالها مختلطون ، فى كل أطوار الحياة وفى كل آن · وها هم اخواننـا وأبنـاء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نســاءهم على كشف وجوههن ، ومعـاملة الرجال ، فأين هم من الاختلال والهلاك ؟ ! ·

لنترك هذه النظريات الخيالية التى لا قيمة لها أمام الوقائع :

دلت التجربة على أن الحرية هى منبع الخير للانسان ، وأصل ترقيه ، وأساس كماله الأدبى ، وأن استقلال ارادة الانسان أهل عامل أدبى فى نهوض الرجال ، فلا يمكن أن يكون لها الا مثل ذلك الأثر فى نفوس النساء ·

غايه الأمر أن كل تغيير يعرض على الأنظار فى صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو فى الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه ، ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره الا العدد القليل ممن يمتد نظرهم الى ما نمكنه المستقبل من الحوادث ·

انظر الى حالة مصر : عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى · فكانت النتيجة انحطاطا عاما فى جميع مظاهر حياتها انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى الأخلاق · وانحطاط فى الأعمال ، وما زالت تهبط من درجة الى أسفل منها حتى انتهى بها الحال الى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ما تصنع بحريتها الجديدة ·

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى • ولا يقدر لها قيمة ، وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية ، بل ويتألمون منهـا ، وينسبون اليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم ، فكم من مرة سمعنا بأذننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة ! • ثم اعتاد القوم شيئا فشيئا على الحرية ، وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمـكن أن يكون ناتجا عنها ، بل له أسباب أخرى • وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونهـا ، ولنا الأمل فى أولادنا الذين يشبون على الحرية التامة ، يجنون جميع ثمراتها النفسية التى من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل ، عند ذلك يعرفون جيدا أن الحرية هى أساس كل عمران •

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء :

أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية • ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترقى ملكاتها العقلية والأدبية ، وكلما ظهر عيب فى أخلاقها يدوى بالتربية حتى تصير انسانا شاعرا بنفسه •

ذلك لأن النمو الأدبى ، لا يختلف فى سيره عن النمو المادى ، فكمـا أن الطفل يحبو قبل أن يمشى ، ويتعلم المشى بالتدريج ، فيمسك الحائـط ويستند على يد مرضعته • ثم متى تعلم المشى وحده لا يحسنه الا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع فى خلالها مرات كثيرة • كذلك الانسانية فى سيرها الأدبى لا تنتقل من حال الى حال أحسن منها الا بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلاف والتجارب المؤلمة حتى تستقيم فى سيرها •

تلك سنة الفطرة • فلا يجوز لنا أن نتخيل أن فى امكاننـا

الخلاص منها ولا الفرار من قيودها · كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع الى الوراء أو نوقف تقدمنا الى الأمام ·

فان أردنا أن نصل الى الغاية التى وجهنا اليها آمالنا فما علينا الا أن نستسلم الى حكم السنة الالهية · ونقبل المتاعب والمشاق التى بدونها لا يمكن الوصول اليها ، والا كان مثلنا كمثل أب مجنون خاف على ولده اذا مشى أن يسقط على الأرض فمنعه المشى حتى كبر فعاش مقعدا مشلول الرجلين ·

الواجب على المرأة لنفسها

أول ما يستوقف نظر الشرقى الذى يحل فى مدينة من مدن أوربا هو المركز المهم الذى تشغله المرأة فيها ، ويظهر له من أول وهلة أن التقسيم المصطلح عليه فى بلادنا بين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية . هذا التقسيم الذى يحول الذى يحول بين اشتراك الصنفين فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها ، ليس من القواعد المعترف بصحتها فى تلك البلاد .

فاذا ترك أوروبا وجال فى أرض أمريكا شخص بصره مندهشا من المنظر العجيب الذى يراه ، واستولى الاستغراب على عقله الى درجة الاضطراب . فيجد أن تقسيمه الغريب قد اضمحل حتى كاد يكون معدوما . ويرى النساء يشتغلن بأشغال الرجال ، والرجال يعملن أعمال النساء بلا فرق ، ويسمع أهل أمريكا يتهمون سكان أوربا بأنهم سكان ظالمون نساءهم مجحفون بحقوقهم كما يرمى الاوربيون رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نسائهم ! .

هذا المنظر يراه الشرقى ويستغربه فى أول الأمر ثم ينساه .

ولا يفكر فيه بعد ذلك . فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئا من أحوالهم ، وان أتى ذكرها عفوا فى بعض الجرائد أو الكتب فلا يحرك ذلك فى نفسه أدنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفى منها .

ذلك لأنه وقر فى نفسه أن عاداته هى أحسن العادات . وأن كل ما خالفها ليس جديرا بالتفاته واهتمامه .

لكن طالب الحقيقة الذى تعود على طريقة الانتقاد العلمى لا يحكم فى الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل ٠

فان رأى يوما فى احدى الجرائد أن « الست غوردون » ترافعت أمام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل ٠ ثم رأى يوما آخر فى مجلة أن الست « كارى ريناد » احدى قسيسات الولايات المتحدة خطبت فى الكنيسة فى مدينة اوهايو على ملأ عظيم من الرجال والنساء ٠ ثم رأى مرة أخرى أن الست « ... ون » تدرس الاقتصاد السياسى فى كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكورا واناثا ٠ ثم علم أن لتلك المحامية زميلات يشتغلن أمام جميع المحاكم ٠ ولتلك القسيسة زميلات فى كثير من الكنائس ٠ ولتلك الأستاذة زميلات فى أغلب المدارس ، وأن تلك النسوة قائمات بأعمالهن على طريقة لا تزيد ولا تنقص فى الاتقان عما يقوم به الرجال فى أعمال ، فماذا يعتقد حينئذ ؟ يعتقد أن قول الشاعر :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

هو قول لا ينطبق على الحقيقة فى شىء ، فلا يصح الاستناد عليه فى الرد علينا ، ونحن نعذر الشاعر الذى لم يفعل سوى حكاية حال النساء التى وجدهن عليها فى عصره ٠ ولكن هل يمكن أن نعذر أنفسنا فى اعتقادنا أن النساء لا يصلحن الا لجر الذيول ، مع أن نظرة واحدة فى الأعمال النفسية التى يأتى بها النساء فى الغرب تكفى فى العلم بأن حياة المرأة تصلح أن تكون مملوءة بشىء أفضل من اللهو واللعب وجر الذيول ؟

هذه الصورة التى شخص بها الشاعر صورة المرأه ليست صورة المرأة الحقيقية لأنها ليست صورة انسان ، بل ولا حيوان ! ٠ اذ ليس فى الوجود حى الا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ، ولا يوجد بين أنواع الحيوانات ، من أفضلها الى أدناها ، فرد الا وهو خاضع لقانون التزاحم فى الحياة ٠

اذا أردنا أن نرتب أعمال الانسان بحسب أهميتها نجد أنها تنقسم الى ثلاثة أنواع :

أولها : الأعمال التى يحفظ المرء بها حياته ·

وثانيها : الأعمال التى تفيد عائلته ·

وثالثها : الأعمال التى تفيد الوجود الاجتماعى ·

ومن البديهى أن كل تربية صحيحة يجب أن تمكن الانسان من القيام بهذه الأعمال وأن تراعى هذا الترتيب الطبيعى · فالمعارف التى تضمن سلامة الحياة والقيام بالضروريات والحاجات اللازمة لها هى أهم من غيرها ، فيلزم أن تفضل على المعارف التى تختص بالواجبات العائلية ، لأنه لا يمكن القيام بأى واجب عائلى الا بعد قضاء الواجبات الأولى · كذلك المعارف التى ترشد الانسان الى معرفة واجباته العائلية هى مقدمة على المعارف التى تختص بالواجبات الاجتماعية · لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت ·

اذا تقرر ذلك نقول : ان التربية التى تشمل هذه الأنواع الثلاثة ، على الترتيب الذى وضعناه · هى لازمة للرجال والنساء على حد سواء ·

ولكن ، دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية · فانى ما طلبت المساواة بين الرجل والمرأة فى شىء منها · لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ـ حجرا عاما مؤبدا ـ هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى أننا لا نزال الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية · وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا · ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية ·

لهذا نترك الكلام على الأعمال والمعارف التى تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر فى الكلام هنا على الأعمال والمعارف التى تختص بالنوعين الأولين .

مهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة لا يجوز أن يدعى أحد أنها يمكنها أن تستغنى عن الأعمال التى تحافظ بها على قواهـا الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الانسانيه .

كذلك مهما اختلفنا فى تحديد وظيفة المرأة فى العالم لابد أن نعترف أنها لا يمكنها أن تتخلى عن الأعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها العائلية .

اذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الأعمال يكون نافعا . وكل تربية تؤهل المرأة الى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو أيضا نافع .

يظن الكثير منـا أن المرأة فى غنى عن أن تتعلم وتعمل . ويزعمون أن رقة مزاج النسـاء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معه أن يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل .

ولكن هذا الكلام هو فى الحقيقة تدليس على النساء ، وان كان ظاهرة الرأفة عليهن .

والناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يجعله على بينة من ذلك . يرى أن الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان الا فى لحظات قليلة . وأنهما يتحاربان آناء الليل وأطراف النهار ، يريد الرجل أن ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها عن كل ما تملكه ويستأثر وحده بالمنافع ، وتجتهد المرأة على قدر امكانهـا فى الدفاع عن نفسها ، ولا تجد الى ذلك سبيلا .

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين فى كتاب لكانت أحسن ما يمكن أن يكتب للدفاع عن حقوق المرأة .

لا أظن أني مبالغ ان قلت انه متى اختلطت مصلحة الرجــل بمصلحة المرأة ، لأى سبب من الأسباب . سواء كان لزواج وقع بينهما أو لاشتراك فى ملك آل اليهما أو لتعهد ارتبطا به ، فأول ما يسبق اليه فكر الرجل هو أن يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها ، والمسكينة غافلة عن الأخطار التى تحدق بها ، وان اكتشفتها فلا يكون فى الغالب الا بعد خرابها وعلى أى حال متى وقعت فى الشرك لم يبق لها من حيلة الا البكاء والعويل لأنها ترى نفسها فى حيرة وارتباك لا تدرى معهما ماذا تصنع للخلاص .

وكل المصريين يعلمون أن النساء فى الوجه القبلى بعامة كن محرومات من حقوقهن فى التركات التى يرثن فيها بمقتضى أحكام الشريعة . وأن هذه الحال بقيت مستمرة الى أن دخل نظام المحاكم الأهلية فى الصعيد . حتى أن بعض المديرين الذين أخذ رأيهم فى تشكيل المحاكم الجديدة فى الوجه القبلى كانوا يعدون من موانع تشكيلها أنها لو شكلت يكون من أحكامها أن يعطى النساء حقوقهن فى التركات ، وأن فى هذا تغييرا كبيرا للعادات المتبعة فى تلك البلاد ! .

وليس فى هضــم حقوق النســـاء شىء من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لأحد .

نحن نفهم أن رجلا يعيش فى عالم الخيال يكتب فى مكتبه على ورقة أن ليس على النساء الا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك لأن الورقة يتحمل كل شىء ! .

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . اذ يكفى فى ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فى قالب لطيف ليقيم الكاتب نفســه مشروعا حكيما . ويحكم على القوانين والعـــادات والأخلاق .

وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد على أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع · فانه اذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فى ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها يجب عليه أولا : أن يسوق نظره الى الوقائع التى تمر أمامه ، أعنى أن يطبق نظريته على الواقع ويتصورها فى ذهنه منفذة ومعمولا بها فى قرية ثم فى مدينة ثم فى اقليم ، وتتمثل أمامه النســـاء فى جميع أعمـارهن وأحـوالهن وطبقاتهن ، فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل · ويراهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى الأماكن الصناعية ويقف على سلوكهن مع أزواجهن وأولادهن وأقاربهن والأجانب ، ثم يعرف البلاد التى للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا فى بلادنا ، وكيف انهن يستعملن حقوقهن والنتائج التى ترتبت على هذا لاستعمال ، ويقف على حالة المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبـات التى طرأت عليها ·

ذلك عمل ليس بالســـهل ، لانه يحتاج الى معلومات جمـة ومشاهدات كثيرة ·

فاذا توفر له ذلك كله ، لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعا ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها الا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت · ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل ·

والأمر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية ، فهو يعتقد أن قضيته تشبه قضية حسابية فهى لا تخطىء أبدا ، مع أنها مؤلفة مع معان عامة مهمة لا يستقر الذهن فيها على شىء محدود ــ مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة الى داخلية وخارجية وهكذا هذه المعانى تملأ عقله ، ولكونها مجردة عن الوقائع والمشـاهدات

فهى فى الحقيقة ألفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان ٠

فهو لا ينظر الى الأشخاص الحقيقيين ، ولا يرى نفسه محتاجا الى أن ينظر اليهم ولا أن يبحث فى أحوالهم ، ولا يخطر بباله أن للمادة الانسانية صورة غير الشكل الخيالى الذى ملك عقله ، لذلك لا يهتم بأن يرى تلك المادة فى صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا أن يبحث ان كانت غنية أو فقيرة ، عائشة وحدها او فى عائلة ، ساكنة فى المدن أو القرى أو البادية ٠

هذه الصورة العديدة المختلفة لا تنفذ الى مداركه ، ولا تقر فيها ، لأن جميع نوافذها قد سدت بحسم النظرية التى احتلت عقله من أوله الى آخره حتى لم يبق فيه مكان لشىء آخر ٠

فهو ان كتب أو تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان ، وانما يكتب ويتكلم عن المرأة التى فى ذهنه ٠

وهى امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين ، جميلة المنظر رقيقة الطبع ، شهوية المزاج تكفى اشارة منها لكى تنال ما تشتهيه نفسها ، لأنها ذات ثروة عظيمة ، أو لأن لها بعلا وافر الثروة ولا يبخل عليها بشىء ، أما أخلاقها فانحطاط النفس والميل الى الكذب والاحتيال والتطلع الى أعمال السوء ، لا يحول بينها وبين ذلك الا الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال ٠

ولا نرى فى تمثيل المرأة فى أذهاننا بهذا الا توارثنا آراء العرب فيها ٠ ذلك أن حياة العرب كانت حياة حرب وقتال ، وأرزاقهم كانت من الغنائم ، وغنى عن البيان أن أمة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير ، اذ المرأة فى هذه المعيشة لا تستطيع أن تجارى الرجل ، ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت

منزلتها بينهم ، حتى حسبت من المتاع وأدوات الزينة ، وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الأموال ٠

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات ٠

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الأمة العربية ، لانحصار المعيشة كلها فى الغزو والدفاع عن القبيل كذلك لم يكن لها عمل فى العائلة ، لأن التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والأكل حتى ينشأ رجلا مقاتلا ، لا عالما فاضلا ٠

فلا عجب اذا رأينا فى كلام العرب وشعرهم وقصصهم ، بل وفى مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم ، ما يدل على احتقارهم للمرأة ٠

هذا هو منشأ تولد صـــورة المرأة فى عقول المسلمين ، وهى صورة حقيقية اذا نظر الى الماضى ، ولكنها مزورة اذا نظر الى الحال والمستقبل ، ذلك لأن المرأة المصرية اليوم لا تشـــابه المرأة العربية التى كانت تعيش من آلاف السنين ، لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، وتختلف عنها فى الملبس والمأكل والمسكن وفى العادات والأخلاق والحاجات والضرورات ، لأن الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التى هى موجودة فيها الآن تغيرت تغييرا كليا عما كانت عليه فى الماضى ، وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب ٠

فالمرأة العربية كانت تكتفى من طعامها بخبز من شعير ، ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها ببيت من شعر ، وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج الى علم واسع وحذق كبير ٠ والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشئون المعاشية ، والمرأة العربية كانت مستعبدة لأنها كانت فى الحقيقة متاعا يدخل فى حوزة الرجل بالسلب أو بعقد هو أقرب للبيع منه الى الزواج ٠

أما الآن فنحن فى عصر آمن الناس فيه بعضهم بعضا ، واستقر

النظام فيهم ، فلم تبق الحرب شغلا شاغلا لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض ، وأصبح الناس غير محتاجين الى الغزو فى كسب أرزاقهم ، فبعد أن كانت قيم الرجال تغلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائهم فى القتال وحسن بلائهم فيه ، وبعد أن كان الفائق فى الشجاعة وقوة البأس هو صاحب السلطان الأعلى ، والضعفاء كلهم تحت كنفه ، انقلب الحال ، ولم يبق للقتال حاجة الا فى أحوال مخصصة يتولاه فيها أناس معروفون ، وأقبل أفراد الأمة رجالا ونساء بعضهم على بعض يتنافسون فى أمور أخرى . فمنهم المتنافسون فى المجد بالعلم ، ومنهم المتسابقون اليه بالثورة ، وفيهم المجدون فى طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة ، واتسع الميدان لتجادل العقول ، والمرأة انسان مثل الرجل زينتها الفطرة بموهبة العقل فحق لها أن تسمو اليوم الى ما يقرب من درجته ، ان لم تستطع ان تساويه فيها ، ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات ، وأصبح المقصر فى سعيه ، الساقط فى عزمه ، القاعد فى كسله وجهله مهددا بالموت ، محفوفا بخطر العدم ، وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد ، فأهل البلد الواحد يتزاحمون فى طرق الكسب ويتدافعون فى سبله بوسائل العمل وحيل العقل وجميعهم يزاحم الأجنبى الذى سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوافر أسباب الأمن وما هذا الجهاد بالهين السهل ، بل هو ما يحتاج الى اعمال القوى العقلية والبدنية أكثر مما يحتاج اليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام .

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها الى قانون الفطرة ، فعرض لها من الحاجات ما لا يمكن معه ان تعيش مقصورة فى بيتها ، فهى مضطرة رغما عنها أن تدخل فى ما دخل الرجال فيه وأن تعمل لتكسب وتعيش وتغلو وتعلو فهى بحكم هذه الضرورة فى أشد الحاجات الى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة فى هذه المزاحمة العظيمة .

وما نسمعه الآن من صياح النســاء وعويلهن وشكواهن من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهن أو اغتيال حقوقهن ومن أحاديث تطوح الكثير منهن فى مهاوى الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ما قلنا ويظهر لكل نظر صواب ما بينا ٠

وانا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده : هل يمكنهم أن يقولوا أن لا حاجة للمرأة تدعوها الى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة ؟ أو يقولوا : انها فى حاجة الى ذلك ، ولكن ــ وا أسفاه ــ ليس فى فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القوى ما يهيئها لأخذ أهبتها فى هذا الجهاد ؟

هذه المسألة لا تحل ببعض كلمات مثل : كون المرأة ضعيفة أو قاصرة العقل ، لأن الضعيف والقوى وصاحب العقل الكبير وذا العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون أمام ضرورات الحياة ، وانما الذى يفيد فى فهم حقيقة هذه المسألة وحلها هو أن يعرف أولا هل يوجد نساء ليس لهن عائل يقوم بحاجاتهن ، أو يوجد لهن عائل لكن كسبه لا يكفى لقضاء ما يحتجن اليه ؟ ثم اذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهن ، وهل هو كثير أو قليل ؟

والذى يمكننا الرجوع اليه فى ذلك هو تعداد أهالى القطر المصرى الذى حصل فى سنة ١٨٩٧ ، وهو آخر احصاء جرى ٠ جاء فى هذا الاحصاء أن جملة النساء المصريات اللاتى يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٧٣١ ر٦٣ أى أنه يوجد الآن فى مجمع المصريات اثنتان فى كل مائة امرأة يشتغلن بصنعة ، ولم يدخل فى هذا الاحصاء نساء الأرياف اللاتى يشتغلن بالزراعة ، ولا النساء الأجنبيات اللاتى بلغ عدد المحترفات منهن بصنعة عشرين فى المائة ٠

وغنى عن البيان أن هاته المحترفات هن نساء لا عائل لهن لما نعهده من أن الرجال لا يسمحون لزوجاتهم ولا لبناتهم أن يحترفن بصناعة ما لم يكونوا أنفسهم عاجزين عن كل كسب

واذا رجعنا الى مشاهداتنا نجد أن النساء اللاتى لا عائل لهن يزدن عن هـذا المقدار أضعافه لأن الأغلب منهن يعيش عالة على أقاربهن ، ومنهن من يستعمل لكسب العيش وسائل لا يعرف بها ، وأضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتى لا يكفى كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن ، فهن مع أزواجهن دائمـا فى نزاع وشقاق ثم تزدحم أقدامهن فى سـاحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فاذا قدر القاضى للزوجة قرشين فى اليوم صاح الزوج هذا كثير وعدد هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع من سبقهن ٠

اذا سلمان أن عدد النساء المصريات اللاتى ليس لهن عائل لا يزيد عن اثنين فى المائة من مجموع النساء المصريات ، أفلا ينبغى لهؤلاء ــ النسوة اللاتى قضت عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الأقـوياء لكسب عيشهن أن يتهيأن الى النجاح قبل الدخـول فى معترك الحياة بالوسائل التى يستعد بها الرجال أنفسهم ؟ وهل يكون من الحق والعدل أن يحرمن من التربية التى تؤهلهن للدفاع عن أنفسهن ؟ وهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟

نحن لا نجادل فى أن الفطرة أعدت المرأة الى الاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد وأنهـا معرضـــة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الأعمال التى تقوى عليها الرجال ، بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديهـا المرأة الى الهيئة الاجتماعية هى أن تتزوج وتلد وتربى أولادها ، هذه قضية بديهية لا تحتاج فى تقريرها الى بحث طويل ، وانما الخطأ فى أن نبنى على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها ان كان لها أولاد صغار عند الحاجة ٠

وذلك لأنه يوجد فى كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ، ومن النساء من يكون

لها زوج ولكنها مضطرة الى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل • ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد ، كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن عن تناول الأشغال الخارجية عن المنزل بحجة أن لهن رجالا قائمين بمعاشهن ، أو لأن عليهن واجبات عائلية • أو لوجود عوارض طبيعية تحول بينهن وبين العمل •

نحن لا نقول للمرأة : أهجرى الزواج ولا تبغى النسل أو اتركى زوجــك وأولادك فى البيت واقضى أوقاتــك فى الطــرق وعيشى ما يعيش الرجال • فانا نكرر القول بأننا نود أن كل امرأة تكون زوجة وأن كل زوجة تكون أما ، ولكن هذا لا ينسينا أن الواقع هو غير ما نتمنى اذ الواقع أن عددا عظيما من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية •

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية ، فاننا لو أخذنا آخر احصائية فى فرنسا لوجدنا أنه يوجد ١٧٠ر٦٢٢ر٣ من النســاء غير متزوجات و ٧٧٨ر٠٦٠ر٢٠ أرامل و ٢٨٦ر٩٢٤ متزوجات وليس لهن أولاد • أى يوجد فى فرنسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرات اليه بدون أن يكون فى أعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن •

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنيــة فى بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل أن يوجد اليوم اثنان فى المائة من النساء المصريات يتعيشن بصنعة أو حرفة سيوجد عن قريب أضعاف هذا العدد ، ذلك لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل •

لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لابد أن يزداد فى كل سنة عن الأخرى لأننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه أوروبا قبلنا •

ولا خلاف فى أن عـدد الزواج فى أوروبا هو أقل منه فى الشرق ، وسبب ذلك أن الواحد منهم لا يتزوج بالسـهولة التى يتزوج بها الواحد منا ، فان الأوروبى يطلب من الزوجة قرينـا يرافقه طول حياته وصـاحبا يشـاركه فى جميع أعماله وأفكاره وعواطفه ، فهو يطلب لها جميع الصفات التى يبحث عنها الواحد منا اذا أراد أن يتخذ له صديقـا ، فالعثور عليه يكون صعبا . وأضيف على ذلك سببا آخر ، وهو أن الحالة الاقتصادية فى البلاد المتمدنة لا تسمح للفرد أن يكون قادرا على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين الا فى النادر ، لأنه يصـــادف فى طريقه مزاحمات عظيمة ، وعليه أن يخرق الصفوف التى أمامه ، هذا ان ساعده الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز فى التجارة أو الصناعة أو الحرف الأدبية ، والكثير منهم يقضى حياته فى البحث ولا يجد شيئا .

ومن الاحتياط عندهم ألا يتزوج الشخص قبل أن يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفى لمعاشه ومعاش أولاده ، لأنهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلاتهم ولا يرضـون أن يكونوا سببا فى شقاء أزواجهم وأولادهم ، فانما الجاهل هو الذى يحمله الطيش فى التعجيل بالزواج ويستهين بما تفرضه عليه تلك الزيجة ، ولا يعرف لأهله حقا عليه .

فنحن مساقون فى هذا الطريق بقوة لا يستطيع أحد مقاومتها ، ويظهر لى أن الزواج عندنا قد بدأ فى التناقص ، فانى أعرف كثيرا من الذكور والاناث تجاوزوا السن الذى يحصل فيه الزواج عادة ، ولزمتهم العزوبة مختارين أو مختارين ، ولكن لا أدرى هل ذلك عام أو خاص ببعض المواضع ، وانما يمكننى أن أحقق أن متوسط السن الذى يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه فى الماضى ، فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين فى الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ ، وكثيرا ما كان يحصل الزواج قلبه .

وليس يفيد شيئا أن يصبح أرباب الأقلام عندنا ناقمين على ما وصلت اليه حالنا اليوم وما ستصل اليه على مر الأيام وأن يستشهدوا بما وقعت فيه أوروبا من نقصان عدد الزواج فيها واحتراف النساء بأشغال الرجال • ذلك لا يفيد • لأنه لا يمكن أن يترتب على هذه الشكوى أثر ما فى مجرى الحوادث فى العالم ، ولو كانت الشكوى تكفى لتغيير الحال لكان الأمر سهلا ! •

والحقيقة أن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتها الاقتصادية ، ومن الأسف هذه الحالة الاقتصادية ليس فى امكان احد من الناس أن يحكم عليها ويدبرها كيف يشاء •

نعم يوجد والكد والاشتغال بأعمال الرجال ـ أي مسترجلات اذا شئت ـ وهن النساء اللاتى زهد فيهن الرجال فلم يرغب أحد فى زواجهن ، والأرامل اللاتى توفى أزواجهن ، والمطلقات اللاتى تركهن أزواجهن ، هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنبا على الهيئة الاجتماعية ، فما من واحدة منهن الا وكانت تتمنى أن تجد رفيقا صالحا يحبها وتحبه ويساعدها وتساعد ما من واحدة منهن الا وتبكى فى وحدتها سوء حظها ، وتأسف على ضياع الأمانى التى قضت حياتها فى انتظارها •

ولكن ما الحيلة اذا كان نظام الوجود يقضى بأن كثيرا من النساء يعشن فى الوحدة والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت أولادهن وبعض أقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب •

يقول المعترضون : انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال ، والاختلاط بهم ، كما أنهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازما لكسب عيشها ، لأن الضرورات تبيح المحظورات • وقد اتفق جميعهم على هذا الرأى ، حتى حضرة العالم العلامة ـ (هكذا هو لقب نفسه على ظهر كتابه) ـ الذى انتدب عن فقهاء الأزهر للرد على [تحرير المرأة] • فكلهم يرون أن منع

المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة أعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذى يؤهلها الى هذه الأعمال هو خاص بغير الفقيرات من النساء اللاتى تلجئهن الضرورة الى السعى لتحصيل أرزاقهن ٠

ويتبين من هذا أنهم متفقون معنا فى حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا فى غيرها ٠ فهم يرون أن الاباحة يلزم أن تكون خاصة لهذه الحالة فقط ٠ وبهؤلاء النسوة ، ونحن نرى أنها يلزم أن تكون عامة شاملة لجميع النساء والأحوال ٠

ولو شاءوا أن يفهموا ما يقولون وأن يقفوا على ما يفضى اليه رأيهم هذا لوافقونا فى رأينا وحكموا حكمنا ٠ لأنهم يقولون ان المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الأعمال ما يتناوله الرجـال اذا مست الحاجة الى ذلك ٠ ولا يخفى أن كل نفس حية معرضـــة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات ٠ والعمل الذى تدفع اليـه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفى فى القيـام به على الوجه اللازم أن تتوجه المرأة اليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه أن تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيـان به على وجـه يوصل الى المرغوب ، وهذا الاستعداد لا يكون الا بالتربية والعلم والتمرين والممارسة واختبار الناس ٠ فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيها لم تسطع للخلاص منها سبيلا ، وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك ٠

ويا عجبا ! كيف نتوقع الخيبة للرجل منـا اذا كان ناقص التربية ، قليل المعرفة ، عديم الاختيـار ٠ ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة اذا اشتركت معه فى هذه النقائص ؟! ٠

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة كلها حوادث جارية ، وتقع فى كل آن ، ولما كان الاطلاع على الغيب أمرا غير

ميسور للانسان وجب أن تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع فيها ٠

لهذا نرى أن من أهم ما يجب على الآباء أن يعدوا بنـاتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقى من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول الى حظ من السعادة فى هذه الحياة ٠

نعم ، نرى أنه يجب على كل أب أن يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن ، وأن يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية أولاده الذكور ، فاذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها عملها بل تستفيد منه كثيرا وتفيد عائلتها وان لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها فى تحصيل معـاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتهـا واستقلالهـا وكرامتها ٠

وسواء نظرنا الى الفوائد المادية التى ينالها صاحب العلم من علمه أو نظرنا الى اللذة المعنوية التى يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب ٠

بين يدى الآن كتاب ألفه أحـد الكتاب الفرنساويين وهو « بول دروزيه » وسماه [الحياة الأميريكية] قال فيه عند الكلام عن تربية البنات ما يأتى :

« رأيت فى أمريكا الصبيان والبنات يذهبون الى مدرسـة واحدة ، ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم بجانب بعض ويسمعون دروسا واحدة ويرتاضون معا ، فاذا أتموا دروسهم استمر هـذا الاختلاط حيث ترى البنات فى المعامل والمصانع يشتغلن ويستخدمن فى « اللوكاندات » الكبيرة لمسك الدفاتر ويربين الأطفال فى المدارس الابتدائية ويطلبن العلم فى مدارس الطب ، وترى منهن قسيسات يخطبن فى الطرق وأعضـاء فى الجمعيات الخيرية ورئيسات فى

المجالس البلدية وما أشبه ذلك · اذا أردت أن تعرف ما هو سبب هذه العادات العربية ، وما هو المقصود من تربية النساء على هذه الطريقة ، وما هى الواجبات التى يتأهبن الى أدائها بهذه التربية فعليك أن تتأمل فى هذه المسألة لكى تقف على سرها · اذا فكرت فيها تعلم أنه يوجد تياران متعاكسان يقابلهما حالتان للمرأة مختلفتان ، وبيان ذلك أن البنت ان بقيت عزبة تضطر الى أن تجاهد فى سبيل الحياة كالرجل الذى يناضلها ، فأحسن تربية توافقها هى تربية كتربية الرجال ، أما اذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهى تشتغل بادارة منزلها وتربية أولادها ، ولكن من ذا الذى يعلم مستقبل البنت وهى فى السنة العاشرة من عمرها ؟ وما الذى يعلمه الآباء أمام هذا المستقبل المجهول ؟ رأى الأمريكانيون أن من الفطنة أن يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجن ، وأن يربوهن كالذكور من جهة التعليم والاستقلال فى السير ، فالأب الأمريكى يربى بنته على أن تعتمد على نفسها لأنه يجعل مستقبلها فان صادفت زوجا يريد أن يضع يده فى يدها ويقطع معها طريق الحياة كانت هذه التربية أحسن ما يؤهلها للقيام بواجباتها العائلية ، وان لم يوجد أحد يرغب الاقتران بها فقد خلص الأب من اللائمة ، حيث أنه تبصر فى المستقبل وعمل ما يمكن أن يعمل ليعدها للغلبة على ما تلاقيه أمامها من الصعاب ومرارة الحياة » ·

ويوجد حرفتان أود أن تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا :

الأولى : صناعة تربية الأطفال وتعليمهم · هذه الصنعة هى أحسن ما يمكن أن تتخذها امرأة تريد أن تكسب عيشها ، لأنها محترمة شريفة ، والمرأة أشد استعدادا لها من الرجال وأدرى منه بطرق استمالتهم ، واكتساب محبتهم · وبلادنا أشد البلاد حاجة الى نساء يعرفن هذه الصناعة ، فانه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها فى تربية الأولاد ، والعائلات المصرية فى احتياج الى عدد من مربيات الأطفال حتى تستغنى بهن عن المربيات الأجنبيات ، كذلك

لا يوجد في مصر مدارس للبنات تتولى ادارتهـا والتعليم فيهـا مصريات ، وهذا نقص كبير فى بلادنا حيث أننا جميعا مضطرون الى تربية بناتنا فى المدارس الأجنبية ٠

والحرفة الثانية : هى صناعة الطب ٠ كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التى يكابدها عندما تكون احدى النساء من أقاربه مريضة ويلح عليها أن تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصا اذا كان المرض من الأمراض الخاصة بالنساء ٠ فاذا وجد عدد من النساء يعرفن صناعة الطب فلا شك أن صناعتهن تروج رواجا عظيمـا بما يجدنه من الحاجة اليهن فى البيوت المصرية ٠ وهنا نقول أيضا ان فن الطب هو من الفنون التى تلائم استعداد النساء الطبيعى ، وما نشـاهده الآن فى المستشفيات العمومية وفى العـائلات من الخدمات الجليلة التى تقوم بها النساء هى أعظم برهان على أن المرأة بما جبلت عليه من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل ما يصلح له الرجال من معالجة الأمراض ، ان لم تكن أشد صلاحية لذلك منهم ٠

كذلك يمكن للمرأة أن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامهـا الترتيب والتنظيم ولا تحتاج الى قوة العضلات والأعصاب كالتجارة ، فكم من بيوت تجارية ارتفعت بأيدى النساء بعد أن كانت سقطت من أيدى الرجال ، وكذلك يمـكن للنســاء مزاولة جميع الحرف الأدبية ٠

ان المرأة المصرية اذا احتاجت اليوم الى كسب معاشها بنفسها لا تجد عملا تتناول منه ما تقتات به الا بعض الأعمال الشاقة السافلة كالخدمة فى بعض البيوت أو الجولان فى الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة ، فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كأنه فى الحقيقة تخصيص لهن بمثل هذه الأعمال الدنيئة التى لا ينال بها

الا القليل التافه وحرمان لهن من الأعمال الشريفة التى تعود على أربابها بالمكاسب الوافرة ٠

فهذه المنزلة المنحطة هى التى نريد استبدالها بأرفع منها ٠

يجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها ـ أولا ـ لا لأن تكون متاعا لرجل ربما يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها ٠

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل فى المجتمع الانسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء ٠

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها ٠

بماذا نقابل رجلا ينصحنا بقوله ربوا أبناءكم ليكونوا أزواجا فقط ولا تعدوهم الا للزواج ؟ لا ريب أنا نقابله بالسخرية والاحتقار ٠ لأننا نعلم أن الرجل لابد له أولا أن يكون انسانا مستعدا لأن يلاقى من المشاق والمصاعب ما يلاقيه الانسان ، وأن ينال من السعادة ما يليق بالانسان أن يناله ، فمتى تعلم وصار قادرا على كسب عيشه وكان متجملا بحسن الأخلاق كان بالطبع زوجا صالحا ، فكيف تقبل نصيحة من يقول لنا : أعدوا بناتكم لأن يكن فراشا فقط ، ولا تعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها ؟! ٠

نتج من كل ما تقدم أن للمرأة حقا فى أن تشتغل بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها ، وأن هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بحق آخر وهو أن توجه تربيتها الى الطرق التى تؤهلها الى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها ٠ وليس معنى ذلك الزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجال وانما معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة اليه ٠

الواجب على المرأة لعائلتها

الى هنا كان كلامنا فى التربية والأعمال التى لابد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها · ونريد الآن أن نتكلم على الأعمال والتربية التى تلزم للمرأة لتكون نافعة فى عائلتها ·

وجميع الناس متفقون على أن قوام العائلة ونظامها فى يد المرأة ، ولكن ليس كل الناس سواء فى فهم هذه القضية ، فالجمهور الأعظم من الناس يفهمون أن معنى ذلك هو أن تقوم المرأة بخدمة زوجها وأولادها ان كانت العائلة فقيرة ، أو تدبر أعمال الخدمة للذين يؤدون هذه الأعمال بأوامر تصدرها اليهم ومراقبتها لهم ان كانت العائلة غنية ·

الى هذا الحد يقف فكرهم :

هكذا بخسنا المرأة حقها فى جميع الأحوال · فبعد أن حرمناها حريتها وأفقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال الى أن ضيقنا دائرة أعمالها ، حتى فى العائلة · وهذا أقوى دليل على أن كل ما يختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض ، فالمرأة المهذبة الحرة هى التى يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم فى عائلتها ، والمرأة الجاهلة المستعدة لا يمكن أن يكون لها من النفوذ فى عائلتها أكثر مما يكون لرئيسة الخدم فى البيت ·

ظن المسلمون أن تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع فى تربيتها يفضى الى اهمالها فى القيام بما يجب

عليها في الشئون العائلية ، فوضعوا بينها وبين العالم الخارجي حجابا تاما حتى لا يشغلها شيء عن معاشرة زوجها وادارة منزلها وتربية أولادها • ولكن انظر الى النتيجة تجد أنها خلاف ما قصدوه ، حيث أن المرأة المصرية لا تعرف كيف تعاشر زوجها ولا يمكنها أن تشتغل بادارة بيتها ولا تصلح لأن تربي أولادها •

ذلك لأن جميع أعمال الانسان مهما اختلفت وتنوعت هي صادرة عن أصل واحد وهو عمله واحساسه ، فان كان هذا الأصل راقيا كان أثره في كل شيء كبيرا نافعا حميدا وان كان منحطا كان أثره في كل شيء حقيرا ضارا غير محمود •

فالوظيفة الحقيرة التي تؤديها المرأة المصرية عندنا اليوم في العائلة هي لمنزلتها من ذلك الأصل المتقدم ذكره ، ولكن عجز نسائنا الآن عن القيام بالأعمال التي ينبغي أن تناط بهن لا يحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن الى الحد الذي يرجى لهن •

فعلى المرأة واجبات غير ما يظن الجمهور عندنا ، وأهم هذه الواجبات هي : تربية الأولاد :

اذا أردت أن تعرف مقدار جهل الأمهات عندنا بأبسط مبادىء التربية انظر الى احصائيات وفيات الأطفال عندنا واحصائيات تلك الوفيات في مدينة مثل « لوندرة » تجد أن عدد الموتى من أطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من أطفال مدينة « لوندرة » • وقد اطلعت على احصائية مصلحة عموم الصحة التي نشرت في هذا العام فوجدت أن عدد المتوفين بين الأطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو في مدينة القاهرة ١٤٥ في الألف ويقابل ذلك في مدينة « لوندرة » ٦٨ في الألف •

فاذا كانت صحة أولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلقا بالطريقة التي يتبعها النساء في تربيتهم أفلا يكون من ضعف العقل

وسخافة الرأى أن نكل أولئك الأولاد الى ما يقترحه الجهال ونتركهم الى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء ؟! ·

ان الأمهات الجاهلات يقتلن فى كل سنة من الأطفال ما يربو على عدد القتلى فى أعظم الحروب ! وكثير منهن يجلبن على أولادهن أمراضا وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم ، وليس لهذا البلاء سبب فى الأغلب سوى جهل الأمهات بقوانين الصحة ، لو كانت أم الطفل تعرف أن كل ما يتعلق بتغذيـة الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له أثر على جسمه لأمكنها أن تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية ، ولو علمت كل أم أن أغلب الأمراض التى تنهك جسم ولدها لا تصيبه من غير سبب ، وأنها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت فى وقايته من كل ما من شأنه أن يضر ببدنه ، ولكن كيف تصل الى معرفة ذلك مع جهلها الذى يخيل لها أن المسببات تقع بلا أسباب أو تحصل بأسباب خارقة للعادة ؟! ·

لا ينبغى هنا أن أشرح بالتفصيل كل ما يليق أن يعرفه القراء فى هذا الموضوع ، وانما نقول بالاجمال : ان التربية الجسمية للولد وحدها تستدعى معارف كثيرة ، يتعلق اغلبها بقوانين الصحة ، وأن معرفة هذه القوانين تحتاج الى مقدار عظيم من معارف أخرى لابد منه ليتيسر فهمها ·

فعلى الأم أن تعرف أفضل الطرق لتغذية الأطفال ، لأن الانتظام فى نمو الجسم يرتبط دائما بانتظام التغذية ، وجودة الأنسجة ، وخصوصا النسيج المخى ، تتعلق بجودة التغذية حتى قال بعض علماء الطب : ان الأمم التى تفضل غيرها فى التغذية تفوق سواها فى القوة وتتغلب على غيرها من الأمم ! ·

وعلى الأم أن تعرف كيف تقى جسم ولدها من أعـراض الحر والبرد ، وما هو الماء الذى ينبغى استعماله فى نظافة جسمه من حار أو فاتر أو بارد ، وعليها أن تعرف أن للهواء والشمس أثرا حميدا فى

الصحة ، فلا تحرمه من التمتع بهما . وهكذا يقال فى الأشياء الأخرى كالنوم واللعب وما أشبه ذلك .

ثم يجب عليها من أخرى أن تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والأدبية ، والا كانت أول عامل فى فساد أخلاق ولدها .

انظر الى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لا يصدر عن انسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك أنها تمنعه من اللعب كى لا يشوش عليها ، وهى لا تدرى أنها بمنعها له عن اللعب تقف فى سبيل نموه ، واذا أرادت أن تؤدبه هددته بما لا تستطيع أو بما لا تريد أن تنفذه أو خوفته بموهومات تثير فى ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته ، واذا أرادت أن تكافئه وعدته بوعود لا تفى بها ، فتكون له بذلك قدوة فى الكذب ، وتحدث فى نفسه ضعف الثقة بالقول ، وهى فى أغلب حالاتها تظهر الغضب عليه وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد ، كأنها تريد أن تثبت له بأقوى الدلائل أنها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواها ، وربما كان السبب الذى أثار غضبها لا يستحق من ذلك كله شيئا فاذا رات تملّه انفعالا مما صدر منها لم تلبث أن تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ما صدر منها ، والولد المسكين لا يدرى كيف استحق غضبها أولا ثم رضاها ثانيا .

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالأمهات بل تجد كثيرا من الآباء عندنا ، لجهلهم بطبيعة الانسانية ، يستعملون فى تربية أولادهم طرقا لا تقل فى الشناعة والسخافة عما تستعمله النساء . ومن أقبح ما يصنعه كثير من الآباء مع أبنائهم أن يشتم ويسب الوالد ولده بألفاظ لا يدرى الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها ، فاذا أحسن الاجابة ضحك أبوه سرورا واستبشر بنجابة ولده ! . وكذلك ترى الواحد يأمر ولده أمرا لا داعى له فيخالفه الطفل فينقض عليه كالوحش

فاقده الشعور ويضربه فى أى مكان يصادفه من جسمه ،ولم يكن ذلك الا لأنه يرى فى عدم طاعة ولده اخلالا بسلطته وامتهانا لعظمته •

ولو كان هذا الأب يعقل ما يفعل وعلم أن كل ما يعود عليه الطفل فى نشأته يحدث فى نفسه أثرا يكون مبدأ لملكة راسخة فيها لما عوده على ما لا يحسن أن يراه منه فى كبره ، ولو علم أن المقصود من التربية ليس أن يتعود الطفل على أن يطيع كل أمر يصدر اليه ، وانما الغرض منها أن يتعود على أن يحكم نفسه لاجتنب الأمر والتهديد والضرب ، فان هذه الوسائل لا تهيىء الطفل الى أن يحكم نفسه ، وانما يتمرن الطفل على أن يحكم نفسه اذا اجتهد أبواه فى اقناعه وتنبيه عقله الى عواقب أفعاله حتى يتولد فى نفسه اعتقاد ثابت بأن ما يصيبه من خير أو شر فهو من كسبه •

أفضل طريق للتربية يؤدى الى هذه الغاية ــ (أن يحكم الشخص نفسه) ــ هى أن يترك الطفل وميله ، يعمل العمل حسب ما يسوقه الى خاطره ، ولا يتداخل المربى الا ببيان ما ينتج عن هذه الأعمال بصورة نصيحة وارشاد • فاذا لج الصبى فى مخالفة النصيحة تركه حتى يقع فى عاقبة عمله ، لكن مع المراقبة الدقيقة كى لا يكون ضرر العمل شديدا ، وانما يسوغ الردع والمنع فى الأحوال النادرة التى يعرض الصبى نفسه فيها للخطر •

بهذه الطريقة يستعد الطفل الى أن يكون رجلا يعتمد على نفسه فى الوقت الذى لا يجد بجانبه أحدا يدفع عنه ويحافظ عليه •

يمكننى أن أقرر بوجه الاجمال حقيقة أود أن يطلع عليها كل أب وأم ، وهى أن جميع العيوب التى تشاهد عند الأطفال،مثل الكذب والخوف والكسل والحمق ، هى ناشئة من جهل أبويه بقواعد التربيه، وأن من السهل ازالة هذه العيوب بالوسائل الأدبية ، وقد يتوصل لازالتها بالوسائط الطبية •

اذا كانت وقاية الطفل من الأمراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج الى معلومات كثيرة كما ذكرنا • فالوقوف على غرائز الطفل الطيبة وغرس الصفات الحميدة فى نفسه يحتاج الى معارف أدق ومعلومات أوفر •

يظن الجمهور الأعظم من الناس أن التربية من الهنات الهينات ، ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أن لا شيء من الشئون الانسانية • مهما عظم • يحتاج الى علم أوسع ولا نظر أدق ولا عناء أشق مما تحتاج اليه التربية ، أما من جهة العلم فلأنها تحتاج الى جميع العلوم التى توصل الى معرفة قوانين نمو الانسان الجسمانى والروحانى ، وأما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته الى بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة فى العمل ودقة فى الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر • لا يؤخذ من ذلك أنى أذهب الى أن كل أم يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة ، ولكن أقول أن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها ، وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها •

يرى القراء أنى أهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية وليس ذلك من باب السهو بل لأن مدار التربية كلها على الأم ، فالولد ، ذكرا كان أو أنثى ، من وقت ولادته الى سن المراهقة ، لا يعرف قدوة له سوى والدته ، ولا يعاشر غيرها ، ولا يرد على حواسه الا الصور التى تعرضه لها ، فنفسه صحيفة بيضاء وأمة تنقشها كما تشاء ، ويتم نقش الصحيفة وتكون كتابا مسطورا عندما يبلغ الطفل سن الرابعة عشرة ، كما قال « الفونس دوريه » ، وليس فى امكان الناشيء بعد ذلك أن يضيف على ما رسا فى نفسه أو ينقص منه الا شيئا قليلا لا يترتب عليه تغيير الكتاب •

هذا السر فى احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم أمهاتهم ، فهم يعلمون أن كل ماهم عليه من الصفات الحسنة والأخلاق الطيبة ،

هو من فضل أمهاتهم اللاتى أودعن فيهم بضعة من أرواحهن • وهى خير بضعة كانت عندهن • ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل الى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره ، ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان ، ان كان يوجد بينهم من حواسه الا الصور التى تعرضــه لها ، فنفسه صحيفــة بيضاء وأمه جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه ، ان كان فيهم من يجد فى نفسه احتراما لدينه وتكريما لشأن وطنه وشوقا الى طلب الكمال فى كل شيء ، فليس ذلك لأنه قرأ فى الكتب او تعلم فى المدرسة أن هذه الصفات ممدوحة ـ ولو كان الأدب يعلم بالحفظ لكان اصلاح العالم من أسهل الأمور ـ وانما كان ذلك لأن والدته أرادت أن يكون على هذه الصفات ، وكابدت مالا يوصف من المتاعب لطبعها فى نفسه وتثبيتها فى طبعه •

فهى التى كانت تحرص ألا يقع تحت حواسه صورة قبيحة ، وهى التى كانت تقــدم اليــه صور الأشياء الجميلة على أشــكالها المختلفة ، وهى التى كانت تعوده على العادات النافعة شيئا فشيئا حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات فى الأرض •

هذه الوظيفة التى تقوم بها الأمهات فى تلك البــلاد هى أهم وأنفع ما يعمله انسان حى على وجــه الأرض اذ لا يوجد شيء أهــم ولا أنفع من تهــذيب نفوس الأطفال واعدادهــم لأن يكونوا رجــالا صالحين •

من هذا يتبين أن عمل المرأة فى الهيئة الاجتماعية هو تكوين أخلاق الأمة ، تلك الأخلاق التى أثرها فى الاجتماع ، من حيث ارتقاء الأمم وانحطاطها ، يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات •

لهذا لا يوجــد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة فى الوجود الاجتماعى وشأنها فى العائلة ولا بأس من أن نورد هنا شيئا من كلام بعض فلاسفتهم لنبين للقراء منزلة النساء فى رأيهم •

قال « سيملس » : « للمرأة فى تهذيب النوع الانسانى أكثر مما لأى أستاذ فيه ، وعندى منزلة الرجل فى النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منزلة القلب » ·

وقال « شيلر » (١) : « كلما وجد رجل وصل بعمله الى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة » ·

وقال « روسو » (٢) : « يكون الرجال كما تريد النساء · فاذا أردت أن تجعل الرجال من ذوى الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة » ·

وقال « فنلون » : « ان الواجبات التى تطالب بها النساء هى أساس الحياة الانسانية فالمرأة تدير جميع شئون العائلة ، وبهذا العمل يكون لها أعظم نصيب فى اصلاح الأخلاق أو افسادها ، ليست الأمة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل ، وانما هى مجموع العائلات ، وما من أحد يمكنه أن يهذب العائلة سوى المرأة » ·

وقال « لامارتين » : « اذا قرأت المرأة كتابا فكأنما قرأ زوجها وأولادها » ·

وأمثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد فى مؤلفاتهم لبيان ما للمرأة من الأثر فى اصلاح أخلاق الأمم بلغ من الكثرة حدا بحيث لا تمكن الاحاطة به ·

ومن الغريب أن الكثير من شبابنا الذين لهم المام باللغة الأجنبية والذين لابد أن يكونوا قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون انى

---

(١) فريدريخ فون شلير (١٧٥٩ ــ ١٨٠٥ م) شاعر وكاتب مسرحى ومؤرخ وفيلسوف المانى لحن بيتهوفن بعض الاناشيده ·

(٢) جان جاك روسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨ م) فيلسوف فرنسى ، تعتبر اراؤه من الافكار التى مهدت لقيام الثورة الفرنسية ، وهو صاحب كتاب [العقد الاجتماعى] كما اشتهر باعترافاته ·

بالغت فى اعلاء شأن المرأة وتعظيم وظيفتها بل كان من أمر بعضهم أن حتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذى لا يليق بأن ينظر فيه ·
وكان العالم الأزهرى الذى رد على كتاب [تحرير المرأة] قد عبر عن أفكارهم عند قوله :

« ما سمعنا فى تاريخ من التواريخ ولا فى سفر من الأسفار ولا فى خبر من الأخبار أن أمة من الأمم أو دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع شأنها باناثها ، وهذه الدول الأوروباوية ارتفعت فى هذه الأيام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف والصنائع واختراع الأمور العظيمة التى عم نفعها ، فأى شىء من هذه العلوم والمعارف وأى أمر مخترعات الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ ·

والذى يقرأ هذه السطور يحق له أن يظن هذا العالم الأزهرى وأمثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الأسفار ولا خبر من الأخبار ! ·

فالنساء اللاتى خلد التاريخ ذكرهن لشهرتهن بالعلوم والمعارف· أو بالأعمال العظيمة لسن بذى العدد القليل ، وتوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهن ، وليس فى امكاننا أن نأتى هنا على ذكر أعمال بعض من اشتهر من النساء فى التاريخ ، وربما تسمح لنا الفرصة كتاب لذلك ، انما يمكننا أن نؤكد هنا أنه لا يوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون الا وقد برهنت المرأة فيه على أنها مستعدة الى أن تصل الى أعلى مراتب الكمال الانسانى ·

وانى استلفت العالم الأزهرى خصوصا الى سلف أمته الصالح ليعلم أن تاريخ دينه لم يخل من ذكر النساء اللاتى كان لهن أجمل الأثر فيه ·

على أن الأمر لا يحتاج تحقيقه الى التاريخ ، فقد وجد فى القرن الذى نحن فيه كثير من النساء اللاتى ارتفع شأنهن وذاع ذكرهن فى جميع الممالك المتمدنة ·

هذه « مارية متشل » (١) اكتشفت نجما ذا ذنب سمى باسمها، وعينت مديرة « لرصد خانة » فى أمريكا ، ومعلمة لعلم الفلك ، ولها مؤلفات كثيرة فى هذا العلم .

و « كارولين هرشل » (٢) اكتشفت سبعة نجوم ، فمنحها مجمع علمى « لوندرة » الميدالية الذهبية .

و « تريز دويافير »لها مؤلفات عظيمة فى الجغرافيا وفى علم طبقات الأرض ، وكانت عضوا فى المجمع العلمى بمدينة « منخ » .

و « صوفى جرمين » (٣) لها اختراعات جليلة فى العلوم الطبيعية .

وكل أهل العلم يعلمون أن « المركيزة دوشاتليه » هى التى نشرت مذهب نوتونى (٤) فى فرنسا « وكلمنس رويه » هى التى نشرت مذهب « داروين » ، و « مدام استيل » هى أول من عرف ألمانيا لأوربا ، وكذلك « مدام تارنوسكى » هى التى نشرت مذهب « لمبروزو » فى البلاد الروسية .

أما عد الفلاسفة والأدباء من النساء اللاتى نشأن فى هذا القرن الذى سبق لا يمكن حصره فى مثل هذا الكتاب ، ولكنى لا أرى بدا من ذكر اثنتين من بينهن لم يسبقن رجل فى فن الكتابة وهما « مدام لافايت » (٥) و « جورج سند » .

على أن الارتباط الذى ادعيناه بين تقدم الأمم وارتقاء حال النساء لم نقصد به أن المرأة تفيد الأمة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها

---

(١) ماريا ميتشل (١٨١٨ ــ ١٨٨٩ م) .

(٢) كارولين لكرشيا هرشل (١٧٥٠ ــ ١٨٤٨ م) .

(٣) (١٧٧٦ ــ ١٨٣١ م) وهى فرنسية .

(٤) اسحق نيوتن (١٦٤٣ ــ ١٧٢٧ م) انجليزى . اشتهر باكتشاف قانون الجاذبية . وهو أعظم علماء عصره .

(٥) مارى لافايت (١٦٣٤ ــ ١٦٩٢ م) روائية فرنسية . صاحبة رواية [أميرة كليف] .

الفلسفية ، وانما نعنى به بخاصة ما لها من العمل فى اصلاح العائلة ثم الأمة على الوجه الذى بيناه ٠

بعبارة أخرى نقول : ان ظهور رجل عالم أو حكيم فاضل فى أمة يعد من الحوادث التى يشترك فى احداثها سببان :

الأول : استعداده بالوراثة لما ظهر فيه :

والثانى : تربيته التى ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه ٠ بحيث لو فقد أحد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم او الفاضل ٠

من هذا يتبين أن شخصية الانسان الأدبية تتكون من عاملين : عامل طبيعى ، عامل صناعى ، وليس فى استطاعتنا أن نؤثر فى الأول ، ولنا على الثانى سلطة اسعة ، حيث أنه يمكننا بالتربية الأولى أن ننمى غريزة الطفل ، ان كانت غريزة صالحة ، ونكملها ونزيدها حسنا ، ويمكننا أن نضعف من أثرها إن كانت بضد ذلك ٠ نعم ان لهذه السلطة الثانية حدا تنتهى اليه ، ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعا عظيما اذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتدينا الى طرق التربية الصحيحة ٠

فهذه التربية الأولى ــ وزمامها فى يد المرأة ــ هى التى أكسبتها ذلك المقام الرفيع الذى لا يعلوه مقام فى الهيئة الاجتماعية ٠

وليس تأثير المرأة فى العائلة قاصرا على تربية الأطفال ، بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال٠ فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح فى أعماله ، وأعدت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لأشغاله ، وكم من امرأة شاركت زوجها أو أخاها أو والدها فى متاعبه ، وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته فى حالة اليـأس والقنوط ، وكم رجل طلب المجد ومعالى الأمور طمعا فى ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب ٠

وضع « استوارت ميل » فى صدر كتابه المسمى (الحريـة) الذى طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية :

« انى أهـدى هذا الكتاب الى الروح التى ألهمتنى أحسن ما وضعته من الأفكار ، الى صديقتى وزوجتى التى كان غرامها بالحق والعدل أعظم ناصر لى ، والتى كان استحسانهـا من أكبر المكافآت التى أرجو نيلها على عملى • كان لها فى جميع ما كتبته الى الآن ، ولها فى هذا الكتاب ، حصة من العمل لا تنقص عن حصتى فيه • وأكبر أسفى أن هذا الكتاب طبع بالحالة التى هو عليها الآن قبل أن تعيد النظر فيه ، ولو كان فى استطاعة قلمى أن يعبر عن نصف ما دفن معها من الأفكار العاليـة والوجـدان السامى لانتفع العـالم به أكثر مما ينتفع بجميع ما أكتبه صادرا عن فكرى ووجدانى بدون مشورة عقلها الفريد ! » •

وكانت زوجة « باستور » (١) الشهير مشاركة له فى جميع مباحثه العلمية وبنت « لمبروزو » تشتغل الى الآن مع والدها ، ومن هذا القبيل أن « مارك » الشهير فقـد بصره فلم يجـد له معينا على معيشته الا ابنته، فكانت تلقى دروسا بالأجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ، ثم انها كانت تحثه على اتمام بحثه العلمى ، وتكتب ما يمليه عليها ، حتى صار بمعونتها من أشهر علماء التاريخ الطبيعى •

هذه الأمثلة ، وغيرها مما يطول شرحـه ، تدلنـا على أن المرأة المهذبة يمكنها ، فضلا عن تربية أولادها ، أن تعمل كثيرا من الأعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم • وأى مصلحة للرجل أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه فى الليل والنهار ، فى الاقامة والسفر ، فى الصحة والمرض ، فى السراء والضراء ، رفيقة ذات عقل وأدب ، عارفة بحاجات الحياة كلها ، تهتم بكل شىء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل

---

(١) لويس باستير (١٨٢٢ ــ ١٨٩٥ م) الكيماوى الفرنسى صاحب الأبحاث التى نشأت عنها « البسترة » • والتى ادت لزوال عقيدة « التولد الذاتى » •

أولادها ، تدبر ثروته ، وتحافظ على صحة وتدافع عن شرفه ، وتروج أعماله ، تذكره بواجباته ، وتنبهه الى حقوقه ، وتعرف أنها باجتهادها تجد فى منفعتها كما تجد فى منفعة زوجها وأولادها ؟ •

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته ، وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها ، ويتمنى رضاها ، ويتوسل اليها بفاضل الأعمال ، ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق ، صديقة تزين بيته ، وتبهج قلبه ، وتملأ أوقاته ، وتذيب همومه ؟ •

هذه الحياة التى لا يشعر الرجال عندنا بشىء منها هى من أعظم الينابيع للأعمال العظيمة • وأقول • ولا أتردد فى ما أقول : اذا لم تبلغ رقة الاحساس عندنا الى حد يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا ، واستمر الرجال على اهمال النساء وتركن فى هذه الحالة الساقطة التى يتألم الكل من آثارها وهم لا يشعرون ، ولم يبادروا باعداد المرأة بالتربية الى أن تكون رفيقة مساوية للرجل • وعشيرة عارفة بادرة بيتها ، وصديقة تفدى زوجها بأعز مالديها ، وأما محيطة بما يجب عليها لأولادها ، عارفة بطرق تربيتهم ، فكل ما فعلناه الى الآن وكل ما نفعله فى المستقبل لترقية شأن أمتنا يضيع هباء منثورا ! •

هذا هو الحق الذى انتهينا اليه عند بحثنا عن أسباب تأخر الأمم الشرقية عموما والاسلامية خصوصا •

هذا الرأى الذى عرضناه على القراء أولا نعرضه عليهم الآن مرة ثانية • وكل ما نرجوه منهم هو أن (لا يضربوا به عرض الحائط) • كما أشار عليهم كثير من أصحاب الأفكار والكتاب الذين طعن أغلبهم فى كتاب [تحرير المرأة] قبل أن يقرأه •

لا خلاف فى أن الأمم الاسلامية فى حالة ضعف تستدعى المبادرة الى علاجها فيتعين علينا أن نشخص هذا الداء بمعرفة أسبابه أولا ،

ثم نبحث عن دوائه ، كما يفصل كل طبيب يهتم بعلاج مريض فما هى أسباب الداء ؟

أسبابه تنحصر اما فى الاقليم ، أو فى الدين ، أو فى العائلة .

أما الأقليم فلا يصح أن يكون سبب الداء ، لأنه من المعلوم أن الأمة المصرية من أقدم الأمم ، ويعترف لها المؤرخون بالسبق فى ابتكار كثير من العلوم والصنائع التى انتقلت منها الى اليونان ثم الى الرومان ثم الى العرب ثم الى أوروبا . وظهر فيها أول دين كبير فى العالم وتمتعت مدة قرون بمدينة مشهورة لاتزال آثارها الى الآن ، وستبقى خالدة فى مالايزال وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة أجيال ، بل أتى عليها زمن تغلبت فيه على ما جاورها وبعد عنها من الأمم العظيمة وقهرتها وأخضعتها لحكمها . ثم بعد فقد استقلالها حافظت على وجودها وهيئتها رغما عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التى توالت عليها . وهذا يدل على أنها وهبت فى طبيعتها حياة قوية ، وأنها مستعدة للمقاومة فى المزاحمة مع الأمم الأخرى ، فاذا كان الاقليم لم يعق الأمة المصرية عن اتيانها بأعظم الأعمال ، ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون ، فلماذا يصير مانعا لها من الترقى فى هذه الأيام التى قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الاقليم ؟ .

على أنه لم يثبت بأدلة صحيحة يسندها العلم أن الحرارة تؤثر فى الجسم والعقل تأثيرا سيئا وغاية ما ينشأ عن اختلاف الاقليم تفاوت فى الأمزجة والأخلاق بين الأمم ، فمن المشاهد أن سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة ، وهذه الصفات النفسية تعرضهم ما قد ينقصهم من الجلد والمثابرة فى العمل .

وفى الشرق أقاليم باردة وسكانها ليسو أقل انحطاطا فى المدينة من سكان الاقاليم الحارة .

وأما نسبة تأخر المسلمين فى المدنية الى الدين الاسلامى فهو خطأ محض . من ذا الذى يقول ان الدين الاسلامى ، الذى يخاطب

العقل ويحث على العمل والسعي، يكون هو المانع من ترقي المسلمين؟ ·
وقد برهن المسلمون أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي في المدنية ، ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخي أن يرتاب أحد في هذه المسألة · نعم ان الدين الاسلامي الصحيح قد تحول اليوم عن أصوله ، واستتر تحت حجب من البدع ، ووقف نموه ، وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون ، وظهر لهذا الانحطاط الديني أثر عظيم في أحوال المسلمين ، ولكن هذا الانحطاط الذي ينسب اليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين في المدنية يحتاج نفسه الى سبب يرد هو اليه ، فهو سبب ثانوي لا أولي ·

وعلى هذا فليس ما نراه في أحوال المسلمين ناشئا عن السببين المذكورين ، فان أحدهما لا تأثير له بالمرة ، والثاني يعد من الأسباب الثانوية ، بقي عندنا السبب الثالث · فهو الذي ينبغي أن تنسب اليه هذه الحال التي نشكو منها ، فانحطاط المسلم كانحطاط الهندي والصيني وجميع سكان الشرق ، ما عدا اليابان ، ناشيء من حالة العائلة في هذه الجمعيات ·

وذلك أن العائلة هي أول شيء يقع تحت حواس الانسان في أول نشأته ، وهي الشيء الثابت المستمر الذي يراه دائما ، فاذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال ، وبهذا التعلق يخطو الخطوة الأولى في سبيل ارتقائه حتى اذا صار رجلا وجد من حاله الشخصي ما يساعده على هذا الارتقاء · ·

فالارتقاء حينئذ له دوران :

الأول : دور اعدادي يقطعه الانسان في مدة طفولته وصباه ، وفيه ترتسم في نفس الطفل الترتيب والتنظيم ، وينشأ فيه الميل الى الفعال الجميلة ، وتتوجه نفسه الى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة ·

والثانى : دور عملى يقطعه الانسان فى سن الرجولية الى آخر العمر ، وفيه تخرج هذه الصفات من حالــة الكمون الى الظهور فى العمل ٠

فان أهمل الاعداد فى الدور الأول استحال صعود الشخص فى درجات الارتقاء ٠ ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم فى المدارس ، ومهما كانت التعاليم الأدبية أو الدينية التى تلقى عليه ، فهو يعيش كالطائر الذى قص جناحه ، كلما هم أن يطير سقط ، ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم الى حظه ورضى به وانتهى الحال الى أن يفضله على كل شىء سواه ٠

ذلك لأن التعليم ، سواء كان دينيا أو علميا ، لا يمكن أن يكون له أثر نافع الا اذا وجد من النفس عونا على النجاح ، كما أن البذرة مهما كانت جيدة لاتنبت الا فى الأرض الصالحة لنموها ٠

يقضى أولادنا الآن أوقاتهم فى تعلم القراءة والكتابة واللغات الأجنبية ومطالعــة العلوم سنين ، ثم ينتقلون الى علوم أخــرى أعلى وأرفع من تلك ، فاذا انتهت مدة الدراسة ودخلوا فى ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم أن يكونوا بيننا رجالا ذوى احساس شريف وعواطف كريمة وأخلاق حسنة وهمم عالية،رجالا يشعرون ويعملون، ورجونا منهم أن نجنى ثمار هذا التعليم الذى بذل فى سبيله النفيس من الوقت والمال ، ولكن ، واأسفاه ! نرى آمالنا فيهم خائبة نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوبا يابسة وهمما صغيرة وعزائم ضئيلة ، أما العواطف فهى بالتقريب ، فيهم معدومة ، فلا يروق لأعينهم منظر جميل ، كما لا ينفرهم مشهد قبيح ، ولا يعطفهم حنو ، ولا تبكيهم مرحمة ، ولا يحترمون كبيرا ، ولا يستصغرون صغيرا ، ولا تحركهم منفعة الى عمل مهما عظم نفعه ٠

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم فى كل السن ، هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل لا يظهر

ولا يقويه ولا ينميه الا التربية البيتية ، ولا عامل لها فى البيت الا الأم ، فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة ، وأشد من هذا كله أثرا فى نفسه ظهورها فى عينيه متحلية بهذه الصفات ، فيقلدها من غير فكر ، ثم يعتاد على ذلك شيئا فشيئا حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لا يمكن أن تنسلخ عنها .

ولا يكون لنفسه شيء من ذلك اذا قضى زمن صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع فى روحه مثال من هذه الأمثلة ، فلو أدركها بعد ذلك بالتعليم كانت محفوظات فى ذهنه لا ينفذ منها شيء الى باطن نفسه ، فلا يحدث له شعور صحيح يكون داعية للعمل وحاثا عليه .

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافى فى وصف مايكابد العاشق من مرارة العشق وآلامه ، وهم لا يعشقون ، وخطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات فى حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ، ولا يأتى قائل منهم بشيء يبرهن به على أنه شاعر بما يقول وترى أن أهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعورا بالاحساس الدينى الحقيقى ، وترانا جميعا منصرفين عن كل شيء ونحن نطلب كل شيء !

بينما كنت أكتب هذه السطور اطلعت فى جريدة [المؤيد] على رسالة لحضرة الفاضل ابراهيم بك الهلباوى (١) حررها على ظهر المركب التى سافر فيها فى هذا العام الى أوروبا ، وقد أعجبنى من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخى كاتبها الصدق فى

---

(١) من أشهر المحامين والخطباء بمصر فى عصره تولى الدفاع عن وجهة نظر الاستعمار الانجليزى ضد الفلاحين المصريين فى محاكمة دنشواى !؟ توفى سنة ١٩٤٠ .

القول ، والذى دعانى للكلام عليها هنا هو أن حضرة ابراهيم بك الهلباوى شرح لنا ما كان يجده من نفسه ويتردد فى صدره عندما مر على جزيرة « كريد » فقال :

« هذه أول مرة انكشفت فيها لعينى هذه الجزيرة بعد انسلاخها من حكم الدولة واعطاء أوروبا اياها هدية لثانى أنجال ملك اليونان! وقد حاولت حال المرور بها أن أتذكر بحسرة وجزع الحوادث التى سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير ، من قتل وسفك دماء مسلمى هذه الجزيرة وما نالهم من الذل والمظالم ، ثم مصادرة من بقى منهم فى أموالهم وثمرات أتعابهم ، كمسلم حقيقى يألم بمصائب أخيه فلم تجد نفسى فى جسمى دما يتأثر ولا بقلبى محلا للأسف أو الرحمة » .

« ولما تساءلت مع وجدانى عن سبب هذا الجمود وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب ، قلت : لعل ذلك لكثرة ما لحقنا منها حتى تدمم (١) القلب وأوشك أن يقال عنه : « تكسرت النصال على النصال » .

« وقد بدا لنفسى جواب آخر على عدم الاكتراث بما أصاب مسلمى كريد . لم يبعد عنى اختلاج النفس بالأسف على مصائبهم فقط بل أوشك أن يخجلنى ، حيث مر بخاطرى حسبان ذلك المصاب، ذلك أنى قبل المجىء الى الاسماعيلية كان آخر سفرى على خط السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق، ثم اتجه القطار بنا نحو الاسماعيلية. وهى المرة الأولى فى حياتى التى مررت بها على « التل الكبير » والقصاصين و « المحسمة » و « نفيشة » ، هذه المواقع التى اتخذت خطوطا للدفاع ضد الجيش الانكليزى فى سنة ١٨٨٢ والشأن ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الأولى يحرك لوعة الأسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها ، ومع ذلك لم أجد ألما أو اضطرابا ؟ » .

---

(١) اى طلى وغطى بالطلاء .

هذا ما كتبه أحد رجال المصريين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن واذا أردنا أن نصدق فى القول مثله يجب علينا أن نعترف اننا اذا مررنا نحن أيضا على هذه البقاع وشاهدناها فلا تتحرك نفوسنا أكثر مما تحركت نفسه ، ولا تشعر بأكثر مما شعر ٠

ومن البديهى ان هذا الجمود ٠ كما سماه صاحب هذه المقالة ، ليس منشؤه ان ابراهيم بك الهلباوى رجل جاهل أو لا يعرف ان محبة الوطن واجبة ، وليس سبب هذا الجمود ما توهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة ما لحقنا من المصائب ، لأن توالى المصائب لا يذهب بالشعور من النفس ولا يضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم ٠

وانما السبب الحقيقى لفقد الشعور الى هذا الحد هو اهمال تربية العوطف عندنا فى زمن الطفولية ٠ وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لا تتأثر الا بالاحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة ، وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفسية ٠

رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة من العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين ٠ فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه ، فأحسست ان الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار فيه جميع الاحساسات التى بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا ، أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور الى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال ٠ فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن ، وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلوحون بقبعاتهم فى الطريق ٠

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويثمر • وهكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى •

فانحطاط المصرى انما هو ناشىء من حرمانه من هذه التربية الأولى ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات • ولا يهتم أحد من أهله الا باعطائه التغذية والملبس • فهم يعتنون به كما يعتنى أى انسان بحيوان يحبه • فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الأسس هو بناء على الرمل لا يلبث أن ينهار مهدوما •

وبالجملة ، ان التربية تنقسم الى قسمين :

تربية العقل : وهى التى توجه مدارك الانسان الى اكتشاف حقائق العالم •

وتربية الروح : وهى التى توجه ارادته الى الخير وتميل باحساسه الى الجميل • وكلتاهما لازمتان لسعادة الانسان •

أما التربيه العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس وأما التربية الروحية فلا تكتسب الا فى العائلة ، ولا يمكن اكتسابها فى العائلة الا اذا كانت الأم فى أول من يدبرها ولا يمكن أن تدبرها الآم الا اذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلى والأدبى ، لهذا قلنا : ان المصريين اذا أرادوا أن يترقوا وجب عليهم أن يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية •

ومما يوجب الأسف ان المصريين لم يفهموا الى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم ، فى حين ان رجالا من مسلمى الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بأبحاثهم الى ادراك شأن المرأة فى الهيئة الاجتماعية وأحاطوا بما لوظيفتها من الأهمية ، وقد قام رجلان من أعاظمهم أحدهما الأمير على القاضى والثانى عناية حسين •

فنشر الأول مقالة جميلة موضوعها (النساء فى الاسلام) ترجمت فى مجلة (المقتطف) فى عدديها الصادرين فى شهرى يونيه ويوليه سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب ما يأتى :

« ما من مقياس يقاس به ارتقاء الأمم مثل منزلة المرأة فيها ، فاذا أراد مسلمو الهنـد أن يرتقوا وجب عليهم أن يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التى كانت فيها فى صدر الاسلام » .

« وكفى من تاريخ روسيا الحديث دليلا على ارتباط تقدم الأمم المادى والمعنوى بمقام المرأة فيها ، فقد بقيت نساء الاشراف فى روسيا متحجبات الى بداية القرن الثامن عشر ، يعشن فى بيوت ، بل فى سجون ، لا يدخلها النور ولا الهواء ، أسدلت الأستار على كواها ، وأحكمت الأقفـال على أبوابها ، ووضعت مفاتيحها فى جيوب الآباء والأزواج ، واذا اريـد نقلهن من مكان الى آخـر نقلن فى محفـات متحجبات متبرقعات كما تنقل النساء فى بلاد الهند ، فلما فكت قيود النساء ، وجارين الرجال فى العلم والتهـذيب ، وصرن من دعـائم الهيئة الاجتماعية ، صارت بلاد الروس من أعظم ممالك الأرض » .

« كانت شمس المعارف فى المشرق فانتقلت الى المغرب ، فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى فى اعلاء شأن نسائنا له عندنا شكر ، ولكن لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« ولابد أن يسأل سائل : هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالأكفان ، كالنساء الشرقيات فى مدن الشرق الآن ؟! ويظهر لى أنهن لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن كما تستر نساء الآستانة الآن باليشمك فيخفى غضون الشيخوخة ويظهر جمال الصبا ، أما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع الا فى أواخر عهد السلاجقة ، وأما الاحتجاب بالبردة على ما هو شائع الآن عنـد مسلمى الهند وغيرهـا من البلدان فلم يكن معروفا فى تلك العصور ، والنساء من الطبقات العليا كن يظهرن أمام الرجال غير متبرقعات »

« واستخدام العرب الخصيان فى عهد معاوية ، آخذين ذلك من الروم . واقتبسوا نظام الحريم فى عهد الوليد الأموى الثانى ، وأمر المتوكل ـ نيرون العرب ـ بفصل النساء عن الرجال فى الولائم والحفلات العمومية ، ولكن بقيت النساء يختلطن بالرجال الى أواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار وعقدن مجالس الأنس ويمضين الى الحرب لابسات الحديد ويساعدن اخوانهن وأزوجهن فى الدفاع عن القلاع والمعاقل » .

« ولما اضمحل شأن الخلفاء فى أواسط المائة السابعة ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون فى هل الأليق بالنساء أن يطهرن أيديهن أو أقدامهن ! » .

وألقى الثانى خطبة فى جمعية الآداب الاسلامية بمدراس فى الهند ترجمت فى جريدة (المؤيد) الصادرة فى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ما يأتى :

« ولدينا نقطة أخرى عظيمة الأهمية لا أرى مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها ، اذ لا ترتقى أمة ولا تسمو مملكة الا بواسطتها ، وهذه النقطة هى تربية البنات . اذا لم تتحققوا أيها السادة أن النساء والرجال توأمان عاملان فى الهيئة الاجتماعية ، أنهم اما أن يقوموا معا واما أن يسقطوا معا ، فلا سبيل الى الرقى ولا وسيلة الى التقدم والنجاح ، ولا نقدر ان نقول أن أساس امتنا موطد الدعائم ثابت البنيان ، تذكروا ان الطفل هو والد الرجل ، وأنه متى كانت الأمهات جاهلات لا يقدر على بث أنوار المبادىء الأدبية والتهذيبية فى نفوس أولادهن ولا يرقين عقولهن ولا يقوين أبدانهن بالوسائل الصحية فاننا نبقى الى الأبد فى آخر صف من صفوف الأمم » .

فانظر الى ما يكتبه رجال من أهل الفقه والعلم فى الهند ، والى ما كتبه فقهاؤنا وكتابنا حيث قالوا : ان المرأة لاشأن لها فى ارتقاء

الأمم ، وانها لا يجب أن تتعلم الا ما يلزمها من فرائض دينها للعبادة ، ولا يسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة ، وقاموا جميعهم ينصحون الناس بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير في طريق الكمال الذى أشرنا اليه بحجة أنه تقليد للغربيين فى عادتهم ، ويوهمون أن الغربيين أنفسهم متألمون من حال نسائهم !

وقد بينا بالتفصيل الأسباب الاجتماعية التى يلزم لأجلها العناية بشأن المرأة واخراجها من الحجر الذى سقطت تحته أزمانا طويلة ، وبرهنا على أنها هى صاحبة السلطة على الأخلاق والقابضة على زمام الآداب ، وأنها هى التى تسوق الأمم فى طريق الخير والشر ، وأنها لا يمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية الا اذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والأدب ·

نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب فى شأن المرأة الغربية ، ومع علمنا بما هى ولا نرى مانعا من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا فيها الأمم الغربية ، لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوما ، ونرى أن البلاد التى يتمتع فيها النساء بحريتهن وبجميع حقوقهن هى التى تسير كالدليل أمام الأخرى وتهديها فى سبيل الكمال فى المدنية ، ومن جهة أخرى نرى أن جميع الأمم التى حطت من شأن نسائها على غاية من الضعف ، وهى فى ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة ، لا يظهر التفاوت بينها مع اختلاف الأقاليم وتباين الشعوب والأديان ·

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ، ولا يمكن لعاقل أن يجادل فيه ·

أما ما زعموه من أن الأوروبيين يتألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخر غير ما نحن فيه ،ومسألة النساء التى هى موضوع بحثنا فى بلادنا غير مسألتهن فى ما يكتبه بعض الكتاب الغربيين ، فاننا فى هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها

الجسمية وانالتها حقوقها الشرعيه وتهذيبها وتمكينها من أداء وظائفها في البيت ، وهذا الطلب لا ينازعنا فيه غربى مما انحطت درجته فى العقل والاحساس ·

وانما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن،ومن طلبهن مساواة الرجال فى حقوقهم السياسية·

وحينئذ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة أو خلط بين موضوع وموضوع · اذ كل انسان يميز بين تقرير الحق وبين استعماله ·

هذه حريـة الصحافـة هنا وفى بعض بـلاد أوروبـا قد ساء استعمالها الى حد أن صار كل انسان يتألم منها ، ولكن لم يفكر عاقل فى أن يدعى أن الواجب هو الحجر على الأفكار · لأن هذا الدواء يكون أمر من الداء الذى يرام معالجته ·

فالأسباب التى يبنى عليها كتابنا رأيهم فى الحجر على حرية النساء هى عين الأسباب التى انتحلتها الحكومة الشرقيـة لحرمان أبنائها من حرية القول والكتابة والعمل ، وهى التى أغرت متأخرى المسلمين بقفل باب الاجتهاد فى التوفيق بين أحكام الدين وحاجات الأمم على اختلاف الأمصار والأعصار مع عـدم الخروج عن الأصول العامة التى قررها الكتاب والسنة الصحيحة ، وهى التى زينت للآباء عندنا أن يستعملوا فى تربية أولادهم وسائل القسوة والغلظـة ، وهى التى كانت تقضى على الحكام عندنا · من عهد ليس ببعيد ، بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها أثمان اللحم والخضار والسلى وأغلب ما يباع ويشترى فى الأسواق ·

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بازالة المضار التى تظهر فى بعض أحوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم ، وقد يكون من أسباب تلك الغفلة أن وجوه المنافع فى أحوال الناس ، وهى جهات حسنها

تخفى عادة على من ينظر اليها نظراً سطحيا ، أما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم ، لأنها تتشكل بأشكال الجرائم والفظائع التى تنفر منها النفوس ، فأول ما تتجه اليه النفس النافرة هو أن تمحو هذا بأية طريقة ، وأقرب الطرق وأسهلها فى بادىء الأمر هو العنف والشدة .

ولكن المتأمل اذا تروى فى الأمور يجد ان لسير الانسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها فى نمو الحياة واستكمال قواها ، سواء فى الأفراد أو فى الاجتماع ، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيىء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية .

اذا تقرر هذا فسلب المرأة حريتها هو أكبر مخالفة لقوانين نموها العقلى والأدبى . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى القاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من اتيان ما ينشأ عنه ذلك الضرر ، ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضررا عاما مستمرا وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه .

وبالجملة . فاننا لانهاب أن نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن فى حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية . حتى لو كان من المحقق أن يمررن فى جميع الأدوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات . لأننا على ثقة من أن جميع المطالب التى يطمح اليها نساء الغرب فى هذه الأيام ليست من الوسائل التى يعضل حلها ، ويدوم القلق بسببها ، بل يقضى فيها المستقبل بحكم العقل والحق .

ورب سائل يسأل : الى متى تنتهى هذه الأدوار التى تنتقل فيها النساء ؟ فالجواب أن ذلك سر مجهول ليس فى طاقة أحد من

الناس أن يعلمه ، وكما أننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتى سنة • كذلك لا يمكننا أن نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة • وانما نحن على يقين من أمر واحد وهو ان الانسانية سائرة فى طريق الكمال ، وليس علينا بعد ذلك الا أن نجد السير فيه ونأخذ نصيبنا منه •



التربيـة والحجـاب

لو لم يكن فى الحجاب عيب الا انه مناف للحرية الانسانية وانه صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فى حكم القاصر ، لا تستطيع أن تباشر عملا ما بنفسها مع أن الشرع يعترف لها فى تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل ، وجعلهـا سجينة ، مع أن القانون يعتبر لها من الحريـة ما يعتبره للرجـل ـ لو لم يكن فى الحجاب الا هذا العيب ـ لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها .

اذا تقرر أن تربية المرأة من الضرورات التى لا يمكن أن يستغنى عنها ، فما هى التربية التى تناسبها ؟ هل يناسبها تربيـة كتربية الرجل ؟ أو تختص بتربية أخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب ؟ أو لابد فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة ؟ أو يرجع فيها الى أصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل فى باب التربية والحجاب ، وقد دار البحث والجدل فيها فى العام الماضى بين كثير من الكتاب . والآن نريد أن نبدى فيها عى غاية من الوضوح .

ففى المسألة الأولى ـ لانجد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل .

أما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة الى الصحة كالرجل ، فيجب أن تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللاتى يشاركن أقاربهن الرجال فى أغلب الرياضات البدنية ويلزم أن تعتاد على ذلك من أول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع والا ضعفت صحتها وصارت عرضة للأمراض ، ذلك لأن النواميس الطبيعية تقضى بضرورة التوازن بين ما يكسبه الجسم وما يفقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها.والأمراض التى تصيب الانسان بسبب اهماله استعمال قواه الجسمية ليست بأقل عددا ولا بأخف ضررا من الأمراض التى تصيب من ينفق قوته ولا يعرض بالتغذية ما فقد منها ، ثم ان ما تقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة فى مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولا يحتمله من النساء الا القويات المزاج صحيحات الأجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدنى المتمتعات بالهواء النقى ، أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات ، ولذلك فان أكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الأولى ، وكثيرا ما يهلكن فيها • فقد بلغ عدد من يموت منهن فى النفاس أكثر من ثلاثين فى الألف •

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والأمراض • كذلك يلزم العناية بصحتها حرصا على صحة أولادها ووقايتهم من العلل • لأن ما يعرض على مزاج الأم وما يكون فيه من الاستعداد المرضى ينتقل بالوراثة الى الأولاد •

وأما من جهة التربية الأدبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها الى المحافظة على آداب النوع ، فسلمتها زمام الأخلاق وائتمنتها عليها ، فهى التى تصنع النفوس ، وهى ساذجة لاشكل لها ، فتصوغها فى أشكال الأخلاق ، وتنشر تلك الأخلاق بين أولادها فينقلونها الى من يتصل بهم.فتصبح أخلاقا للأمة بعد أن كانت أخلاقا

للعائلة كما كانت أخلاقا للعائلة بعد أن كانت أخلاقـا للأم · هذا يدلنا على أن المرأة الصالحة هي أنفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي أضر عليه من الرجل الفاسد · ولعل هذا هو السبب في ما وقر في نفوس الناس في كل زمـان من أن الرذيلة الواحـدة اذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها اكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها ، وأن الفضيلة تعلى من شأن المرأة ما لا تعليه من شأن الرجل ·

بقى علينا الكلام على القسم الأخير من التربية ، وهو التربية العقلية ، هذه التربية هي عبارة عن تعلم العلوم والفنون ، والغاية التي ترمي اليها هي أن يعرف الانسان ما في الكون من الموجودات وفيها نفسه ، حتى اذا عرف ذلك على حقيقته أمكنه أن يوجه أعماله الى ما يعود عليه بالنفع ويتمتع بلذة : المعرفة ، فيعيش سعيدا ·

والمرأة كالرجل على حد سواء في الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا فرق بينها وبينه في التشوق الى استطلاع عجائب الكون والوقوف على أسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها ·

ومهما عظم اشتغال المرأة ، متزوجة أو خالية ، ذات أولاد أم لا ، فانها تجد من الوقت ماتثقف فيه عقلها وتهذب نفسها ·

ولو خصص نساؤنا للمطالعة عشر الوقت الذي يقضينه في اليوم في البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهن الأمة المصرية ارتقاء باهرا ·

ولا تتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعليمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية · بل تحتاج أيضـا لتعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجع اليها حركات الكائنات وأحوال الانسان ، كما أنها تحتاج لتعليم مبادىء قانون الصحة ووظائف الأعضاء حتى يمكنها أن تقوم بتربية أولادها ·

والمهم فى هذه التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد حتى اذا انتهت مدة تعليمها فى المدارس استمر شوقها الى الحق فتتحرك دائما وتعتبر به ·

وأضيف على ذلك أنه ينبغى على البنت أن تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت ·

ولابد هنا من استلفات النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل فى نفسها الى الفنون الجميلة · وانى على يقين من أن أغلب القراء لا يستحسنون أن تتعلم البنات الموسيقى والرسم، لأن منهم من يريد أن لافائدة فى الاشتغال بهذه الفنون ، ومنهم من يعدها من الملاهى التى تنافى الحشمة والوقار ، وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون فى بلادنا الى حد يأسف عليه كل من عرف مالها من الفائدة فى ترقية أحوال الأمم ·

فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلم ، لأن العلم يعرفنا الحقيقة ، وهذا الفن يحببها الينا ، لأنه يبديها لنا على الشكل الأكمل الذى يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل الى الكمال والكمال شيء يدركه عقلنا ، لكنه لا يقع تحت حواسنا ، فلا يمكننا أن نتصوره الا اذا صار مجسما أمامنا فى شكل لطيف نحس به ، ومتى رأيناه فى هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته ، وكلما كان صاحب الفن ماهرا فى صناعته كان صنعه أقرب للكمال وكانت النفس أكثر ميلا اليه وأشد اعجابا به وأعظم سرورا بالاحساس به ·

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فانها أفصح لغة تعبر عما فى ضمائرنا ، وألذ ما يرد على مسامعنا ، ومن أحسن ما وصفت به قول أفلاطون :

« ان الموسيقى تبعث الحياة فى الجماد ، ويسمو بها الفكر ، ويرتقى الخيال ، وتبث فى النفس الفرح والسرور ، وترفعها عن

الدنايـا ، وتميل بها الى الجمال والكمال ، فهى من عوامـل الأدب للانسان » ٠

هذه هى التربيـة التى نود أن تكون للبنـات ، وقد بيناهـا اجمالا ، لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلا ٠ هذه هى التربية الكاملة التى تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون انسانا يكسب عيشه بنفسه ، وزوجة قادرة على أن تحصل لعائلتها أسباب الراحة والهناء ، وأما صالحة لتربية أولادها ٠

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ، فما الذى ينبغى أن تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب فى بيتها ، وتمنع عن مخالطة الرجال ؟ أو تطلق لها الحرية فى ذلك ؟ هذا هو موضـع البحث فى المسألـة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معا لما بينهما من الارتباط ٠

رأى المنتقـدون على [تحرير المرأة] أننا تطرفنا فى مسألـة الحجاب ، وأننا أشرنا برفعه تقليدا للعادات الغربية ٠

وزعموا أن الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولايترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائه والمحافظة عليه ، وقالوا : ان الذى حط بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية ، فلو تربت تربية حسنة أمكنها ، وهى فى الحجاب ، أن تقوم بواجباتها أحسن قيـام ٠

على أننا بعد أن دققنا النظر فى جميع ما قيل أو كتب فى هذا الشأن لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه الا وثوقا بصحة ماذهبنا اليه ٠

ولا نرى سببا للخلاف بيننا وبين مناظرينا الا الاختلاف فى فهم معنى التربية ، فهم يرون ان التربية هى التعلم ، وذلك يتم على

رأيهم بمكث الصغير في المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية ، وأنه متى نال هذه الورقة السميكة، التي سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) ! عد بالغا فى العلم واقدب حد النهاية • ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد أن التربية لاتقوم بالمكث فى المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيد الصبى من ذلك فى أيام التحصيل الاولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه •

ذلك لأن الصبى فى السنة الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمره لا يعرف من العلم الا نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها فى جمل مختصرة ، ومهما كانت هذه القضايا علمية أو أدبية فلا قيمة لها الا بظهورها فى العمل ، وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التى تحدد دائرة تطبيقها والحد الذى يفصلها عن غيرها وتبين الأحوال التى تدخل فيها أو تخرج عنها وجهات نفعها وضررها ، هذه التطبيقات هى الواسطة الوحيدة فى فهم القواعد على حقيقتها ، فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد الا ألفاظا وخيالات •

لهذا لا يخطر على بال رجل عاقل أن يسلم نفسه الى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولا يختار محاميا للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمنا كافيا !

وكذلك الحال في الآدب والأخلاق • اذ لاشىء على الانسان أسهل من أن يعلم مقدار الفائدة فى ضبط شهواته وقهره نفسه • ولكن لاشىء أصعب فى العمل من أن يأتى ذلك بالفعل • لأن قهر الانسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعيان قوة عظيمة فى الارادة ، ولا توجد هذه القوة فى الارادة باقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص ، ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الأدبية ، وانما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها •

فمزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الأمور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب ، كل هذه الأشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة ، بها ترتقي النفوس الكريمة حتى تبلغ أعلى الدرجات ، وأمامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى أسفل الدرجات •

قال « سبنسر » (١) في هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية •

« لا فائدة من التربية التي تجعل الانسان مستودعا لأفكار غيره ، لأن الكلمات التي توضع في الكتب لا يمكن أن تنتج معاني الا على نسبة التجارب المكتسبة » •

وقال « أدمون ديمولان » (٢) عند كلامه على التربية الأدبية ، نقلا عن تجربة صديقي أحمد فتحي باشا زغلول :

« ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى أن الأمم التي بلغت فيها همة الانسان منتهاها،وهي ملجأ الحياة الأدبية الصحيحة، حيث تثبت الأخلاق وتبقى المحامد ، وبيانه أن المؤثر الأدبي انما يجعل المرء قادرا على قهر النفس والتغلب على هواها ، وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة العملية التي يتعلم فيها أن لا اعتماد الا على نفسه ، وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة ، فهي التي تقود المرء الى الحياة الحقيقية، وهي المدرسة الطبيعية التي تربه كيف يتحمل المتاعب والرزايا ، وهي الأسهل تناولا والأكثر شيوعا وطلابا ، تلك ضرورات أشد

---

(١) هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م) الفيلسوف الانجليزي الذي لقب بفيلسوف التطور •

(٢) (١٨٥٢ ـ ١٩٠٧ م) عالم الاجتماع الفرنسي • صاحب كتاب (سر تقدم الانجلز السكسونيين) وصاحب كتاب (التربية الحديثة) •

فعلا فى النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الاخرى • ذلك لأن الأعمال تدعو الى العمل أكثر من الاقوال » •

فالتجارب هى أساس العلم والادب الحقيقى • والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس ، لأن المرأة التى تعيش مسجونة فى بيتها ، ولا تبصر العالم الا من نوافذ الجدران أو من بين أستار العربة ، ولا تمشى الا وهى كما قال الامير على القاضى : «ملتفة بكفن»، لا يمكن أن تكون انسانا حيا شاعرا خبيرا بأحوال الناس • قادرا على أن يعيش بينهم •

ولا يكفى لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التى يشكو الكل منها أن تمكث بضع سنين فى المدرسة ، ثم تنتقل منها الى بيت تحتجب فيه بقية عمرها ، بل يلزم أن تستمر فى الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ، ونشركها فى حياتنا الطبيعية ، يلزم أن نضع يدنا فى يدها ، ونسير معها فى الأرض ، ونريها عجـائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثارالزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر ، يلزم أن تقاسمنا أفكارنا وأمالنا وأفراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا ، فتستفيد مما يعرض فيها من الأخـلاق والأفكار والمباحث وتفيدنا على رعاية الحشمة والتأدب فى القول •

يقول معترض : « أنا نراك تريد أن تحسن حال المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية ، فهلا أعرت تمدننا القديم الذى كان من أصوله احتجـاب النساء نظرة ، وهل من نفوس كريمة يهزهـا ذكرى مجدها القديم فتلتفت الى أصوله لفتة علمية ترى أنه هو المجد الصحيح الذى يجب أن نشد له رواحل العزائم ، والذى سيتضح للعالم أجمـع يومـا ما أنـه هو نفس الكمال الذى ينشده الانسان ويلتمسه الوجدان » ؟

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارىء سماعه لطلاوة لفظه ، وربما

ينجذب اليه لأنه يحرك الميل الغريزى فى كل انسان الى التعلق بآثار الآباء والأجداد . ولكن الأجدر بنا أن نجعل للفظ تأثيرا فينا الى حد يذهلنا عن الحق ، وعلينا أن نأخذ أهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة اذا خشينا أن تسلبنا ارادتنا واختيارنا ، والتعلق بالتقاليد الراسخة لايحتاج الى التحريض والترغيب ، لأنه حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها ، فهى مستغرقة فيها من ذاتها ، وانما الذى يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماض ضار واعتناق مستقبل نافع .

اذا أمكننا أن نأخذ تلك الأهبة كان من أهم ما يجب علينا أن نلتفت الى التمدن الاسلامى القديم ونرجع اليه . ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء . بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان .

ظهر الدين الاسلامى فى جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون فى حال البداوة ، أى فى أدنى الحالات الاجتماعية ، فأوجد بينهم رابطة ملية ، وأخضعهم الى رئيس واحد ، ووضع لهم شرعا نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة فى معاملاتهم من قديم الزمان . ولما أمرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الأمم الأخرى ، واستولوا عليها ، ولم يكن ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الأمم فى العلوم والصنائع، ولكن كان بروح الوحدة التى بعثها الاسلام فيهم . مع استعدادهم الفطرى للقتال.فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الأمم كثيرا من العلوم والصنائع والفنون ، فاستفادوا منها ونقلوا معظمها الى لسانهم . سمحوا لأولئك المغلوبين أن يأتوا فى ترقيتها بما شاءوا ، وظهرت عند ذلك نهضة علمية ، كما هو الشأن فى الأمم عقب كل انقلاب يجرى لغاية صالحة، استمرت مدة أربعة قرون تقريبا .

على هذين الأساسين شيدت المدنية الاسلامية :

الأساس الديني : الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد •

والأساس العلمي : الذى أرتقت بـه عقول الأمـة الاسلاميـة وآدابها الى الحـد الذى كان فى استطاعتها أن تصـل اليه فى ذلك العهد •

ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لا يؤيد أكثرها بشىء من التجارب • كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم • ووضعوهم تحت مراقبتهم • وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلميـة وانتقدوها • وحيث أنهم لم يأتوا اليها من بابها ، ولم يجهدوا أنفسهم فى فهمها أخذوا يؤولون الكتاب والأحاديث بتأويلات استنبطوا منها أدلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على أن يسيئوا الظن بها • ومازالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ، وانتهى بهـم الحال الى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة الا العلوم الدينية • بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها أنها لابد أن تقف عند حد لايجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقرروا أن وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لأحد أن يخالفه ، وكأنهم رأوا من قواعد الدين أن تسد أبواب فضل الله على أهله أجمعين •

هذا النزاع الذى قام بين أهل الدين وأهل العلم ، ولا أقول بين الدين والعلم • لم يكن خاصا بالأمم الاسلامية ، بل وقع كذلك عند الأوروبية • ولكن لما كانت هذه الأمم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب ، كان وصول تلك العلوم اليها قرب تمام تكوينها ، لم تحتج أروبا الى زمن طويل فى اكتشاف الأصول الحقيقية لتلك العلوم ، وقد نالت منها فى مائتى سنة ما لم ينله غيرهـا فى آلاف

السنين ، وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضا ويرشد بعضها الى بعض ، فمنها اكتشاف قوانين سير الكون ، وتحليل الضوء ، وسرعة سيره ، وكيفية تكون الأصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها ، وعلمت ماهية الحرارة ، وكيفية تكون الكرة الأرضية وحقيقة شكلها ،وتكون الأرض وتقادم الأعصار عليها وعلى سكانها ، وضروب التغييرات التى طرأت عليها والأدوار التى تقابلت فيها من وقت أن كانت كتلة نارية الى أن ظهر عليها النوع الانسانى بعد جميع الأنواع الأخرى • ثم عرفت قوانين الحياة ، ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم ، وخصائص قوى الادراك ، وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى ، وصححت وكملت أصول الكيمياء والطبيعية •

من هذه الاكتشافات أخذ الكتاب والفلاسفة مادعت اليه الحاجة ليعلموا الانسان من أين أتى والى أين يذهب وما هو مستقبله ، ووضعوا أساس العلوم الأدبية والاجتماعية والسياسية •

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لا يمكن لعاقل أن يفكر فى أن يهدمه ، ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين فى أوروبا بعد النزاع والجهاد ، وانتهى الحال بأن صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة •

فاذا كان التمدن الاسلامى بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلوم ، كما بيناه ، فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان (نموذج الكمال البشرى) ؟ يهمنا أن لا نبخس أسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم ، ولكن يهمنا مع ذلك ألا نغش أنفسنا بأن نتخيل أنهم وصلوا من التمدن الى غاية من الكمال ليس وراءها غاية• نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها ، لذلك نرى من الواجب علينا أن نقول :

انه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الاسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه ، لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة . ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصا منها فى بعض أدوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .

أما من جهة العلوم فالأمر ظاهر ، لما سبق بيانه .

وأما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث فى التاريخ لانجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاما ، فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين ، فكان الحاكم وعماله يجرون فى ادارتهم على حسب ارادتهم ، فان كانوا صالحين رجعوا الى أصول العدالة بقدر الامكان . وان كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعنف ، ولم تكن فى النظام ما يردهم الى أصول الشريعة .

ربما يقال : ان هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة ، وأن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر . ونحن لا ننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب الا بعض دقائق هى سلطة لفظيه ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر ، فهو الذى يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الأحكام ويدير مصالح الأمة مستبدا برأيه ولا يرى من الواجب عليه أن يشرك أحد فى أمره .

ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها ، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية بها مع الحكام فى ادارة شئونها .

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع قانــون يبين الأعمال التى وجـدوا أنهــا تستحق العقاب ويحـددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعزير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء ، مع أن بيان الجرائم وعقابها هما من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا أن أقول انهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فان هذه العلوم حديثة العهد ، واذا أراد مكابر أن يتحقق من ذلك فما عليه الا أن يتصفح مقدمة ابن خلدون . وهو الكتاب الفرد الذى وضع فى الأصول الاجتماعية عند المسلمين يرى أن الأصول التى اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطأ ، ويندهش على الخصوص عندمـا يرى أن هذا الكتاب الذى وضع للبحث فى المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة فى العائلـة التى هى أساس كل هيئة اجتماعيـة ، فاذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منها أن نستعيره منها ؟

كذلك اذا نظرنا الى حالتهم العائلية نجد أنها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفى فى عقد زواجه بأن يكون أمام شاهدين، ويطلق زوجته بلا سبب أو بأوهى الأسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمر الى الآن على ما هو مشهور ، ولم يفكر أحد من الحكام أو الفقهاء فى وضـع نظام يمنع انحلال روابط العائلة ، وأقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل أن يقروا مثلا ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لابد أن تكون أمام مأمور شرعى حتى لا تبقى هذه الشئون موضعا للريب ومحلا للشبهة ومثارا للنزاع والشقاق .

أين هـذه الفوضى من النظامــات والقوانين التى وضـعها الأوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية ؟ بل أين هى من القوانين اليونانية والرومانية التى لم تغفل فى جميع أدوارها عن

أهمية العائلة وشأنها فى الهيئة الاجتماعية ؟ فأى شيء من هذا يمكن أن يكون صالحا لتحسين حالنا اليوم ؟

بقى علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامى من جهة الآداب . يعتقد أهل عصرنا أن المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع أنواع الكمالات الأخلاقية الصحيحة ، وهو اعتقاد غير صحيح أو على الأقل مبالغ فيه .

أما من جهة أصول الأدب ، فالمعلوم أن المسلمين لم يأتوا للعالم بأصول جديدة،فقد سبق المسلمين أمم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم ، وقد كانت تلك الأمم تعرف تلك الأصول ، وضمنتها كتبها ، ونزلت على بعضها فى وحى سماوى .

وأما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الأصول الأدبية ، فالتاريخ يشهد على أن كل عصر لا يخلو من الطيب والردىء والحسن والقبيح . وقد وصلت الينا أخبار العرب مدونة فى الكتب التاريخية والأدبية فكشفت لنا الغطاء عن أخلاقهم ومعاملاتهم ، وأطلعنا على شعرهم وأمثالهم وأغانيهم فما وجدنا زمنا من الأزمان خاليا من الآداب الفاسدة والأخلاق الرذيلة والطبائع الدنية . رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى آخر أيامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة على التباغض والحقد وحب الذات، حتى فى الأوقات التى كانت فيها الدولة مشتغلة بأهم الحروب مع الأمم الأخرى رأينا أحد أولاد على رضى الله عنه تزوج بأكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده أن ينصح الناس بألا يزوجوه بناتهم ؟

ورأينا من الرجال من كان يعترض النساء فى الطريق ويختلس النظر اليهم من خروق الحائط ! رأينا من أمرائهم وأعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لا يعى ما يقول فى مجالس تحضرها الجوارى وتطرب الحاضرين بنغمات الموسيقى ! . رأينا من شعرائهم من يستجدى العطايا ويمد يده ملتمسا رزقه من فضلات الأمراء والأغنياء،

ومنهم من يمدح نفسه ويثنى عليها ويذهب فى ذلك الى حد ليس بعده الا الجنون ، او يتغزل فى ولد أو يهجو خصمه بعبارات الفحش وألفاظ الوقاحة التى يستحى من تصورها فضلا عن التفوه بها ! • رأينا من مؤرخيهم من يزور فى التاريخ ومن فقهائهم من يخترع الأحاديث ويضعها لغايته الذاتية !

فأى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال أنه (نموذج الكمال البشرى) ؟ الكمال البشرى لا يجب أن نبحث عنه فى الماضى ، بل ان أراد الله أن يمن على عباده فلا يكون الا فى المستقبل البعيد جدا •

من أغرب ما اعتاد عليه العقل الانسانى أن يظن أن العصر الذى هو فيه أحط منزلة فى الكمال من العصر الذى سبقه • ومنشأ ذلك أن الأبناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل ما يصدر عنهم ، فالكمال عندهم ما وجدوا عليه آباءهم ، ويزيد ذلك تقريرا فى نفوسهم أن الآباء يستهجنون دائما ما صار اليه أبناؤهم مما لم يكن معهودا لهم ، لا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم ، فيكون وهم الأبناء وغرور الآباء كل منهما عونا للآخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضى •

ولو صح ما يزعمون لكان أكمل انسان هو أول من وجد من نوعه ، ولاستمر النقض عصرا بعد عصرا الى هذا اليوم ، ولكانت نهاية الانسان أن يصير حيوانا أعجم ، مع أنه من الثابت أن عصورا مضت على النوع الانسانى وهو فى أدنى مراتب الانسانية ، ثم ارتقى بالتدريج الى أن وصل الى هذه الدرجة العليا التى يحق له أن يفتخر بها •

متى تقرر أن المدنية الاسلامية القديمة هى غير ما هو راسخ فى مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت فى الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه

كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن ، وسواء صح أن النساء فى أزمان خلافة بغداد أو الأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح ، فقد صح أن الحجاب هو عادة لايليق استعمالها فى عصرنا ٠

ونحن لا نستغرب أن المدينة الاسلامية أخطأت فى فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى ٠

وغنى عن البيان أننا عند كلامنا على المدينة الاسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين ، بل من جهة العلوم والفنون والصنايع والآداب والعادات ، التى يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التى اختصت بها ، ذلك لأن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر فى وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الأخلاق لم ينتج الا أثرا مناسبا لدرجة عقول وآداب الأمم التى سبقت ٠

والذى أراه أن تمسكنا بالماضى الى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا الى التدلى والتقهقر ، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا الا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلا منا يناجى نفسه قائلا لها : أتركى الفكر والعمل والعناء واسترخى فليس فى الامكان أن نأتى بأبدع مما كان ! ٠

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر الى علاجه ، وليس من دواء الا أننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ٠

اذا أتى هذا الحين ــ ونرجو ألا يكون بعيدا ــ انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ٠ وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم اصلاح ما فى أحوالنا اذا لم يكن

مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، وأن أحوال الانسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم ٠

لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها مبانيها وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل ، أما من جهة العلوم والصنايع فلا يوجد اختلاف الا من حيث كونها تزيد أو تنقص فى أمة عن أمة أخرى ٠

من هذا يتبين أن نتيجة التمدن هى سوق الانسانية فى طريق واحد ٠ وان التباين الذى يشاهد بين الأمم المتوحشة أو التى لم تصل الى درجة معلومة من التمدن منشؤه أن أولئك الأمم لم تهتد الى وضع حالتها الاجتماعية على أصول علمية ٠

هذا هو الذى جعلنا (نضرب الأمثال بالأوروبيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار الى المرأة الأوروبية) ٠

هذه مسألة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيرا فى أن أقف على رأى علماء المسلمين فيها ٠ من المتقدمين أو المتأخرين ، فما وجدت شيئا ، وقد نبهنى أحد أصحابى الى كتاب ألفه فى هذا الموضوع حضرة الشيخ حمزة فتح الله (١) المفتش بنظارة المعارف ، وقد قرأته من أوله الى آخره فوجدته يحتوى على كل شىء ولكنه لم يشتمل على شىء مما وضع الكتاب لأجله ! ٠

ومن الغريب أن الذين لم يرق فى نظرهم اعجابنا بالأوروبيين

(١) حمزة فتح الله (١٢٦٦ ـ ١٣٣٦ هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩١٨ م) أديب وعالم وصحفى مصرى ، له ابحاث لغوية ، وشارك فى مؤتمر المستشرقين بفينا واستوكهلم وترك عددا من الرسائل والمصنفات ٠

اضطروا جميعهم بمن فيهم الشيخ الأزهري • أن يستشهدوا في الرد . علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الأوروبيين ، نساء ورجالا ! •

فان كان منهم من يقول : انى قليل الاطلاع على ما كتبه المسلمون، قصير الباع فى علومهم ، فأنا لا أجادله فى هذا ، وانما يسرنى ويملأ قلبى بهجة أن أرى كتابا اسلاميا ، قديما أو جديدا ، يحتوى على حقوق المرأة وما يجب عليها من حيث هى امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة ، فان جاءنى من يزعم قلة اطلاعى وقصر باعى بكتاب مثل هذا أثقلته حمدا وشكرا •

وسيقول أرباب الأفكار عندنا : انا نسلم بأن المدنية الأوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التى توصلت الى جمعها وانمائها واستخدامها ، ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة للأخلاق والآداب التى تلازمها فى كل مكان وصلت اليه •

فهم يعترفون للغربيين بأنهم أرقى منا فى العلوم والفنون والصنايع ، ويعرفون بأن معارفهم أوصلتهم الى توجيه أعمالهم فى طريق تحصيل منافعهم بأحسن الوسائل الموصلة الى السعادة فى هذه الدنيا ، ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض ، وخصوصا كيفية معاملة رجالهم لنسائهم ، أو سمعوا بها ، تغير حكمهم عليهم تغيرا كليا ، وأعرضوا عن فهم ما هم فيه وصرحوا بأنهم أحط منا فى الآداب • هذا الاعتقا يشبه أن يكون عاما فينا كما يلاحظ من يقرء الجرائد ومن يلتفت الى الأحاديث التى تدور بين الناس ، وهو اعتقاد لا يصعب علينا بيان سببه •

ذلك أننا نذعن بتقدم الغربيين علينا فى العلوم والصنايع لأننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع أطرافنا ، فكلما التفتنا الى جهة من جهاتنا وجدنا أثرا منها مشهودا ، نراها فى البيت فى مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع أدوات المنزل وأثاثه • نراها فى المدرسة مدة التعليم ، ثم من النظامات التى تدور عليها جميع أصول وفروع ادارتنا وحكومتنا • نراها فى الطريق على شكل عمارات فاخرة وجوانب

كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربية ، وبالجملة نرى فى كل آن وفى كل مكان برهانا ماديا لا يمكن معه الا التسليم بأننا متأخرون عن الغربيين كثيرا فى المعارف العلمية والصناعية ٠

وكأنما نريد أن نمحو العار الذى يلحقنا من هذا الاعتراف ، ونأخذ بثأرنا ، فلا نجد وسيلة لذلك الا أن ندعى أننا أرقى منهم فى الآداب ، وأنهم ان سبقونا فى الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم فى الروحانيات وسرائرها ٠

وانما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لأن التقدم فى الماديات مما يقع تحت الحس ، فلا يمكن انكاره ، أما التقدم فى الأمور المعنوية فهو مما لا يدرك الا بالعقل ، فلا يقف عليه كل انسان ويجد المكابر فى غيبته عن الحس مجالا للانكار ، وقد يساعد المكابر فى مكابرته ما يراه أو يسمع به فى البلاد الغربية من كثرة الملاهى ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيىء العادات التى يتبرأ منها الغربيون أنفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون فى محوها أوتقليلها ولكنهم يأسفون على أن مساعيهم تعجز عن الوصول الى ما يتمنون ، فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب وأقمنا منها حجة لتأييد دعوانا ٠

ومما أخذناه على الغربيين فى آدابهم تكشف نسائهم واختلاطهن بالرجال وتمتعهن بالحرية التامة واحترام الرجال لهن ، وكثير منا يعد هذه العادات أسبابا لفشو الفساد فيهم ، ويعتقدون أن جميع نسائهم لا يعرفن العفة ، وكل امرجال مجردون عن الغيرة ٠

ولما كانت غاية التمدن هى تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر الفضيلة بين الناس ، كان لنا الحق فى احتقار المدنية الأوروبية ، ان صح ما اعتقدناه فيها ٠

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟ ٠

أما كون الآداب في الغرب أحط منها في الشرق فهي مسألة لا يسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ، ويمكننا أن نجمل الكلام عليها في قليل من العبارات :

ان العداوة القديمة التي استمرت أجيالا بين أهل الشرق والغرب ، بسبب اختلاف الدين ، كانت ولا تزال الى الآن سببا في جهل بعضهم أحوال بعض ، وأساء كل منهم الظن بالآخر ، وأثرت في عقولهم حتى جعلتها تتصور الاشياء على غير حقيقتها ، اذ لاشيء يبعد الانسان عن الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر اليها تحت سلطان شهوة من الشهوات لأنه ان كان مخلصا في بحثه محبا للوقوف على الحقيقة ، وهو ما يندر وجوده فلابد أن شهوته تشوش عليه في حكمه ، وأدنى آثارها أن تزين له ما يوافقها وتستميله اليه ، وان كان من الذين لا منزلة للحق من نفوسهم ـ وهم السواد الأعظم ـ ضربوا دون الحق أستارا من الأكاذيب والأوهام والأضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لا يبقى لشعاع من أشعة الحق منفذ الى القلوب ٠

وزد على ذلك أن التربية العلمية لم توجد في العالم الغربي الا من زمن قريب ، وهي لاتزال الى الآن مفقودة في الشرق ، والمحروم من هذه التربية لا يسهل عليه أن يبني أحكامه على مقدمات صحيحة ، لأن الجاهل يستمد حكمه من احساسه لا من عقله ، فهو لا يستحسن الشيء لأنه مطابق للحق، وانما يعتقد الشيء مطابقا للحق لأنه يستحسنه بخلاف المتعود على الأبحاث العلمية ، فان عقله ينخدع باحساسه . فكلما اراد أن يشتغل بمسألة طبيعية أو تاريخية مثلا جمع الحوادث التي تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التي يحكم بصحتها بناء على ما حصل من المقدمات ، غير صادر في ذلك الا عن حب الحقيقة ، فاذا عرض له أن يشتغل بالنظر في حال جاره أو عدوه

استعمل الطريقة التى ألفها وسلم بما تؤدى اليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه ٠

ولقد وصل الغربيون الى درجة رفيعة من التربية ، واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين ، وكتبوا فى عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتبا نفيسة أو دعوها آراءهم من نتائج بحثهم ٠ وامتدحوا ما رأوه مستحقا للمدح وقدحوا فى ما رأوه محلا للقدح ، غير ناظرين فى ذلك الا الى تقرير الحق واعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم أخطأوه ٠

أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذه المبلغ ، ولهذا كان حكم كتابنا فى هذه الأشياء فى قياد الشهوات وتحت سلطة الاحساس والالف والعادة ، ومن وجد لشعاع الحق لمعانا فى بصيرته وجد من خوف اللائمة عقيدة فى لسانه تمنعه من اظهاره ، أو حملة الرياء على اطالة القول فى تأييد ما لا يعتقده ، فاذا وجد بينهم مخلص فى القصد طالب للحق وجهر به كان نصبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة ــ وأشدهم اقتصادا فى ذمه يرميه بالبطش والخفة توهما منه أن الاعتراف بفضل الأجنبى مما يزيد طمع الأجانب فينا وأن اظهار عيوبنا مما يوقع اليأس فى قلوبنا ٠

ولا عذر لهم فى حكمهم هذا الا أنهم قد جروا فيه على سنتهم فى سائر أحكامهم ، والا فهم مخطئون ، لأن السبب فى طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وانما هو نفس ذلك الانحطاط الذى عرفه الأجانب منا قبل أن نحس به من أنفسنا ، فهم قد اكتشفوا ما كانت عليه بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ، ووقفوا على أخلاق المصريين وتفصيل أحوالهم فى معيشتهم أيام الفراعنة ، وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئا كثيرا لم يصل الينا الا منهم ، وقليل منا من

يعرفه ! فلا عجب أن يكونوا أسبق منا الى معرفة حالتنا الحاضرة ، نقصها وكمالها ٠

ثم لا خوف أن يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا ، لأن اليأس انما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة ، وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة الينا ، خصوصا أن الأمم لا تقف فى حياتها عند حد ، بل هى موضوع للتقلبات والتغيرات ، وتتوارد عليها أحوال القوة والضعف والشدة والرخاء ، فلا تدوم على حال ، واذا عرضت عليها الشدة يوما لا تلبث أن تخرج منها بجهدها واجتهادها ، وبديهى أن التوجه الى الاصلاح والكمال لا يمكن الا بعد الشعور بالنقص ٠ فما لم تستشعر الأمة بتأخرها عن الأمم الأخرى وتقصيرها عن الوصول الى ما وصل اليه من غايات الكمال لا تنبعث الى التقدم ولا تتحرك لادراك غاية من هذه الغايات ولذلك كان تنبيه الأمة الى نقصها واشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الأمم أول فرض يجب القيام به ، كما أن شعور الأمة بهذا النقص يعد أول خطوة فى سبيل ترقيتها ٠

لهذا لا نتردد فى أن نصرح بأن القول بأننا أرقى من الغربيين فى الآداب هو من قبيل ما تنشده الأمهات من النغائم لتنويم الأطفال ! ٠

وغاية ما فى الأمر أن تقدم الأوروبيين علينا من هذه الجهة لا يقام الدليل عليه بآثار مادية ٠ كتقدمهم فى العلوم والصنائع ٠ وانما يعرفه من خالطهم واختبرهم فى ظاهر شئونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الأدبية ٠

ينقسم الأوروبيون ، كما تنقسم سائر الأمم ، الى ثلاث طبقات: عليا ، ووسطى ودنيا ٠ فأما الطبقة الدنيا فأكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادىء العلوم ، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشد فسادا من عامتنا فى أخلاقها ٠

وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية العقلية ، ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة ، وتستولى عليها الشهوات ، فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد في الاختراعات والصنائع ٠

وسبب ذلك أن التمدن الذى يعيشون فيه قد يسهل لهم ارضاء شهواتهم ، ويجدون من الوسائل لذلك مالا يوجد عندنا ، فأبدعوا فى اختراع طرق التلذذ وأعطوها الأشكال التى تجذب النفوس اليها ، فالكهرباء مثلا التى تضيء المدن وتنقل الأخبار وينتفع منها الزراع والتجار والصانع والمسافر والمريض تقوم لأرباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذى يناسبهم وكذلك ترى لهم جرائد وكتبا وميادين تمثيل تختص بهم ، كما أن لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة ٠

هذا الفساد مما تتحمله المدنية الغربية وتصبر عليه لأنها لا تستطيع محوه ، فان هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية ٠ فهى مضطرة لأن تقبل ما يتبع هذه الحرية من الضرر ، لأنها تعلم ان منافعها أكثر من مضارها ٠

فوجود الفساد في الغرب انما هو لاحق طبيعي من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها فى الطور الأدبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن ٠

ولا يشك أحد فى أنه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية فى طبقات الأمة ، عاليها ودانيها ، تتهذب النفوس شيئا فشيئا ، وتقرب من الكمال الذى هو ضالتها ٠

غير أنه لا يفوت القارىء ان هذا الفساد الذى ذكرناه فى الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التى هى الركن الأقوى لبناء الأمم ، وما يتبع تلك الفضائل من بذل الأنفس والأموال

فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه ، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه اذا دعا داع الى هجوم أو قيام لدفاع أو الى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لاجابة الداعى ويخاطر بنفسه ويبذل ماله الى أن يتم للأمة ما تريد ، فأين حـال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة فى الأمم الغربية من حالة الآمة الشرقية ؟ .

وأما الطبقة الوسطى فلا ريب أنها أرقى من التى تقابلهـا عندنا ، نحن فى الحقيقة لا نعـرف من أحوال الغربيين الا بعض ما ظهر منها ، والكثير منا لا تزيد معرفته على ما عرف منهـا فى الشوارع والقهاوى وما قرأه فى بعض القصص والحكايات ، وليس من الحق ولا من العدل أن نظن هذه الظواهر هى صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الأدب .

من أراد أن يكون حكمه فيهم صحيحا فعليـه أن يلم بجميع مظاهر حياة تلك الأمم ويقف على جميع الاحساسات والعواطف التى تحرك نفوسهم ، وهذا أمر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهـم وعاداتهم وأخلاقهم ، فاذا تمت للباحث هذه الشروط أمكنه أن يعرف لم يهب رجل ألمانى حياته ويترك زوجتـه وأولاده مسـاعدة لأمة البوير ؟ .

ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحيـاة ويرجح الاشتغال بحل مسألة أو كشف غامضة أو فهم علة ؟ وكيف أن سياسيا واسع الثروة عالى المقام يفنى زمنه فى تدبير الوسائل لاعلاء شأن أمته ، وربما حرم نفسه راحة النوم من ذلك السبيل ؟. وما هو المحرك للسائح الذى يقضى الشهور والسنين بعيدا عن أهله وبلده لكشف منابع النيل مثلا ؟ . وما هو الاحساس الذى يرضى القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع ما يتكبده من أنواع العذاب

وما يحيط به من الأخطار ؟ • وما هذا الوجدان الذى يسوق الغنى الى أن يبذل آلافا من الجنيهـــات لجمعية من الجمعيات الخيرية أو لعمل يعود نفعه على أمته أو على الانسانية ؟ •

اذا علم السر فى هذه الصفات ومصـــادر هذه الأعمـــال الجليلة ، ثم علم ما بين أعضاء العائلات من الوفاق والائتـــلاف والمحبة ، ونظر الى ما فى معاملاتهم من الصدق فى القول والغيرة على الحق ونمو احساس الشرف والميل الى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شـــك أنه ينتهى من هذا العلم الى نتيجـــة صحيحة وهى أن هؤلاء القوم على جانب عظيم من الأدب والفضيلة ، لأن هذه الأعمال والأحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس ، كما تدل على نمو الاحساس بحاجة كل من أفراد الأمة الى الآخر ، والترقى الأدبى انما هو التضامن بعينه •

وليس هذا بغريب ، فان التقدم فى العلوم يؤدى الى التقدم فى الآداب والأخلاق ، لاريب أن الارتقاء العقلى يصحبه الارتقاء الأدبى دائما ، فان العلم هو المادة التى يتغذى منها الأدب ، لا أقول أنه لا يوجد الأدب الا حيث يوجد العلم ، وانما أقول : ان أدب الجاهل لايمكن أن يكون ثابتا فى نفسه مثل ثبات الأدب فى نفس العالم • العلم يخاطب العقل والحقائق العلمية لا تطلب أن يسلم بها من غير مناقشة ، بل تحتاج الى بحث وتعب وشـــغل والاعتيـــاد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط النفس ، الذى هو أهم أركان الادب ، فان هم شخص أشربت نفسه العلم أن يعمل أمرا مخالفـــا للآداب نزع منه نازع الى النظر فى ذلك الأمر وآثاره ومزاياه ومضاره ، ثم رجع الى نفسه ليعلم هل هو يصـــح لهـــا أو لا يصح • ويندر حينئذ أن يقدم عليه • أما الجاهل فان كان فاضلا لم تكن الفضيلة فيه الا عادة مجردة • وهو مستعد للاذعان الى ما يتأثر به ، حسنا أو قبيحا ، ومائل الى قبول ما يرى أغلب

الناس عليه بدون بحث ، فاذا انقطعت العادة مـرة ، وذاق لذة الرذيلة ، انفلت قياد نفسه من يده ، واستحال عليه أن يرجع الى ما كان عليه من قبل ٠

رأينا أن العلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس ، وأضيف على ذلك أنه يعظم الاحساس الدينى ٠ وليس فى ذكر هذه العبارة خروج عن الموضوع ، لأن الدين والأدب يرجعان فى الحقيقة الى شىء واحد ٠

وأجمـل ما قيـل فى هـذا المعنى ما أتى به الفيلسـوف « سبنسر » فى كتابه الذى كتبه فى التربية اقتطف منه هنا بعض ما يليق بالمقام ٠ قال :

« ليس العلم منافيا للاحساس الدينى ، كما يزعم كثير من الناس ، بل ترك العلم هو المنافى للدين ٠ ولنضرب لذلك مثلا فنفرض أن عالما من كبار المؤلفين يصنف الكتب ويقـرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون ألسنتهم بمدحه ، ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه الا غلفها ، ولم يقرأوا شيئا منها ، ولم يجهـدوا أنفسهم يوما فى فهم ما احتوت عليه ، فماذا تكون قيمة هذا المدح فى نظرنا ؟ وما الذى نعتقده فى صدق هؤلاء المادحين ، ان جاز لنا أن نقيس عظائم الأشياء بصغارها ؟ نقول : ان النـاس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة ! ٠ وأدهى ما يأتـون من تلك المعاملة أنهم لا يكتفون بأن يعيشوا ويموتوا وهم لايعرفون حقيقـة من حقائق تلك الأشياء التى ينادون بأنها من أبدع البدائع وأغـرب الغرائب ، بل ينحون باللائمة على من يشتغل بفهم حقائقها والوقوف على ما أودع فيها من الأسرار ، ولو فقهوا لعلموا أن اهمال العلم هو المضعف للاحساس الدينى ، بل الماحق له ٠ أما خدمة العلم فهى عبادة يؤديهـا القلب ٠ لأن خـدمة العلم فى اعتراف ضمنى بأن

للمخلوقات قيمة عالية ، وأن الذى أوجدها له شـــأن أعلى ومقام أسمى . خدمة العلم هى احترام للكون وصانعه يؤديه طالب العلم ، لا بمجرد الفم واللسان ولكن ببذل وقته وفكره وعمله » .

نستنتج مما ســـبق أن تقدم الغربيين فى العلوم ســـاعد كل المساعدة على ترقيتهم فى الآداب وأن تأخر المعارف عندنا كان سببا فى انحطاط أدابنا .

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجرى فيها بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته مما لا يحتاج بيـانه الى تفصيل . وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيها من الحسـد والتباغض والخيـانة والمنازعات والجرائم والبهيمية التى يحار العقل فيها ، وهذه حوادث الوطن وما يرى فى روابط أهله من الانحلال وتفرقهم فى الرأى فى أحقر الشئون وحرصهم على المال الا ينفقوه فى سبيل أى منفعة من المنافع العامة وضنهم بشىء من أوقاتهم للفكر فى أى مصلحة من مصالح بلادهم ، كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا ، وما يكون عندنا من محاسن الأخلاق ، كالكرم المعهود فى كثير من بلاد الأرياف ، يرجع فى الحقيقة الى عيب من العيوب كالتنافس فى حب الشهرة ولهذا ترى الكثير من أعيان البـلاد المشهـــورين باكرام الضيف والمبالغة فى الاحتفال به يسيرون فى سائر شئونهم على خـــلاف مقتضى الكرم . فيظلمون الفقير ويطمعون فى أموال الضعفاء من أقاربهم ، وخصوصا النساء منهم ، ويضيقون على عائلتهـــم فى المعيشة ، ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة .

وحال الأمة التركية لا يختلف فى ذلك عن حالنـــا . نعم ، فى بعض بلاد الريف هناك رقى فى الآداب والأخلاق وامتياز لها على الأخلاق والآداب المصرية . ولكن لا ســـبب لذلك الا أن التركى يعيش فى قريته بغاية السذاجة ، وعلى ضرب من سعة العيش ،

فلا يجد ما يحمله على ارتكاب ما يخالف الآداب الحسنة ، وهو بعيد عن كثير من الرذائل ، لأنه يجهلها ولا يتصور وجودها • فاذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته لا يجاريه أحد فى مسابقة أهلها الى مراتع اللذات ومسارح الشهوات ، وفاق أمثاله فى جميع العيوب الأخرى ! •

بالجملة • نقول : ان التمدن الأوروبى ليس خيرا محضا ، فان الخير المحض ليس موجودا فى عالمنا هذا • لأنه عالم النقص • وانما هو الخير الذى أمكن للانسان أن يصل اليه الآن • فقد أتم به شيئا مما كان ينقصه ، وارتقى به درجة من الكمال •

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة ، فى جانب ما ينتظر للنفس الانسانية من الكمال ، فانه ينبغى لنا أن نقنع بها ، وعلى المستقبل أن يصل بأهله الى ما هو أعلى منها •

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا أن الترقى يحصل فى بعض شئون الأمة ، ولا يؤثر فى سائرها ، والصواب أن الترقى لايكون ترقيا صحيحا الا اذا وجد منه روح تظهر فى جميع شئون الأمة ، جزئياتها وكلياتها ، حتى اذا شاء باحث أن يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقى تظهر فى المسكن والمطعم والملبس والمبانى والطرق والجمعيات والأفراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهى ، كما تظهر فى الصنائع والتجارة والزراعة والعلوم والفنون ، وعلى الجملة يجد أثرا للترقى فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية •

ذلك لأن الحالة العقلية والحالة الأدبية متلازمتان تلازما تاما • بل هما فى الحقيقة حالة واحدة ، وانما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التى ينظر منها اليها ، فان كل معلوم يرد على العقل

يفيده معرفة جيدة ، ثم هو بهذه الافادة نفسها يدخل فى نظـــام سلوكنا ، ولو كان العلم قاصرا على المعرفة فقط وليس له أثر فى العمل لفقد معظم أهميته ان لم نقل كلها •

وأما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا ، وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهن مع الرجـــال وتمتعهن بالحـرية ، واحترام الرجـــال لهن ، فلس، سما يدل على انحطـاط الآداب عندهم •

نعم ، يعد الكثير منا هذه العادات عيوبا ، ولكن اذا سئلت : لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ •

لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب أن تكون نبيهة متعلمة ؟ •

لماذا يسمح لها أن تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ •

لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام ؟ •

فجواب الواحد منا لا يكون الا أن هذه هى عادتهم السيئة ولكن هذا الجواب لايفيد شيئا ، لأنه يستدعى سؤالا آخر ، وهو لماذا كانت هذه العادة ؟ •

وهنا يتيسر له الجواب •

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات أمة متوحشة لســهل علينا أن نقول : ان هذه العادة طرأت عليهـــا بحـــكم الحوادث • وتلك الأمة تعمل تحت سلطانها بدون أن تفكر فيها ، وهى تجهل أصلها وارتباطها بأحوالها كما تجهل الأثر الذى ينشأ عنهـــا فى شئونها •

ولكن مما لايسلمه العقل أن أهل أوروبا وأمريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم بأسبابها ونتائجها ، ويصعب على العقل أن يظن أن علمـــاءهم الذين يجهـدون أنفسهم كل يوم فى اكتشاف اسرار الطبيعة ، وان هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوهـــا وبينوا أنواعهـــا ووصفوهـــا بأدق أوصافها وربوهـــا واستولدوها ، غفلوا عن هذه العادة وأهملوها ٠

والحقيقة أنهم درسوها درسا تاما ، كغيرهـــا من المســـائل الأخرى ، وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية ، ولا أعلم أن واحدا منهم قام ينادى قومه يوما ويحثهم على تغييرها ٠ بل الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق ٠ وأن عدم الحجاب هو السر فى تقدم الغرب ٠ وانما الخلاف يوجد بينهم فى تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه ٠

هذا الاجماع أمر جدير بأن يستوقف نظرنا ٠ وجـــد بين الغربيين رجال يرون أن الملكية الخاصة هى سرقة ، وأن الأموال يجب أن تكون ملكا شائعا بين جميع أفراد الأمة ٠ وظهر فيهم من يقول بالغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجـل والمرأة حرة لاتخضع لنظام ، ولا يحددها قانون ٠ وخـــرج منهـــم طائفة تنادى بهدم كل نظام وشرع ٠ ولا تعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق الوجود ٠ ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم أن يطلب حجاب النساء ٠ بل نرى الأمر بالعكس ، فان المتطرفين من أرباب المذاهب يطلبون التوسع فى حرية المرأة والزيادة فى حقوقها الى أن تصير مساوية للرجل ، فهم على شططهم متفقون فى ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة ٠

فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه ؟

لأن الاوروبيين لا يحبون التغيير فى عادتهم ؟ كلا • فان التغيير عندهم هو قانون تقدمهم ، ومن ألقى نظرة عامة في تاريخهم من قرن واحد يجد أنهم غيروا كل شيء عندهم ، غيروا حكومتهم ولغتهم علومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم ، وأن كل ما وصلت اليه هذه الأمور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت الى آخر •

كذلك لا يصح أن يكون من أسباب هذا الاتفاق ما يقـــال من أن الأوروبيين لا يقدرون شرف النفس حق قدره ولا يغارون على نسائهم • هذا القول الذى سمعته من كثير من الناس لا يمكن أن يصدر الا من قليل الخبرة ، ناقص المعرفة ، لم يقف على شيء من أحوال سكان تلك البلاد ، فهو لا يدرى منها أكثر مما يدريه من أحوالنا سائح غربى يدور فى « الأزبكية » وما جاورها ، ويكتب من عوائدنا ما يراه من الطائفين حـــول تلك الأماكن المشهورة • اذن فما هو السبب ؟

السبب هو أن مسألة حقوق المرأة وحريتهـــا ليست فى الحقيقة مجرد عادة ، نرى الغربى يرفع قبعته اذا أراد التحيـــة ، والشرقى يحرك يده ويضعها على رأسه ، فهذه عادة من العـــادات يمكن أن يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ، ولكن أهميتها لا تتعدى الموضوع الصغير الذى وضعت لأجله ، ولايمكن أن يترتب عليها نتيجة في الحياة الشخصية أو العامة ، أما كون المرأة تتعلم أو لا تتعلم ، وتعيش مسجونة فى البيت أو متمتعة بحريتهـــا ، وتخالط الرجال أو لا تخالطهم ، وما هى حقوقها فى الزواج والطلاق، وماذا يكون شأنها فى العائلة وفى الأمة فهذه أولا مسألة اجتماعية ، فهى بذلك مسألة علمية ، ولا غرابة بعد ذلك فى حصول الاتفاق فيهـــا •

لهذا يلزمنا بدل أن نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها ، وهى أنهم ضلوا عن الحق فى ما يختص بشأن النساء عندهم ، يلزمنـــا بدل ذلك أن نقف على أفكارهم فى هذه المسألة ، ونبحث فى آرائهم وفى أسباب النهضة العظيمة التى قام بها الرجال والنساء فى هذا القرن ، وندرس جميع نتائجها الحالية ، وبعد ذلك يمكن أن نكون لأنفسنا رأيا صحيحا مؤسسا على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيدا بالتجارب والوقائع ٠

خاتمـــة

حالة الأفكار الآن
فى مصر بالنسبة للنساء

ابتدأ المصريون فى هذه السنين الأخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية ، وبدت عليهم علامات التالم منها ، وأحسـوا بضرورة العمل على تحسينها وصلت اليهم أخبار الغربيين واختلطوا وعاشروا الكثير منهم ، وعرفوا مبلغ تقدمهم ، رأوا أنهـم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمـة وغير ذلك من المزايا التى وجدوا أنفسهم محرومين منها ، والتى لاقيمة للحيـاة بدونها ، انبعث فيهم الشوق الى مجاراتهم والرغبة فى الحصـول على تلك النعم • وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التى اعتقدوا أنها تهدى الأمة الى طريق النجاح ، هذا يدعو الى العمل النشاط ، وذاك الى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ أسباب الشقاق ، وآخر الى حب الوطن والتفانى فى خدمته ، وغيره الى التمسك بأحكام الدين • وهلم جرا •

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد ، وهو أن هذه الكلمات وماشاكلها لايمكن أن يكون لها فى حياة الأمة أثر يذكر اذا وصلت الى النساء وأدركت معانيها وتعلقت نفوسـهن بحبها وتوجهت ميولهن اليها ، حتى يمكنهن بعد ذلك أن يضعن أولادهن بأحسن الصور التى تمثل كمال الانسان فى أذهانهن

ذلك لأن كل حال اجتماعية لايمكن تغييرها الا اذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب • ولأنه لايكفى فى الاصلاح ، مهما كان

موضوعه ، مجرد الحاجة إليه ، ولا أمر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه ، ولا خطبة تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ، ولا كتب تؤلف فى بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه . فان هذه الأمور كلها لا أثر لها الا فى ارشاد الأمة وتنبيهها الى سوء حالها ، ولكنها ليست من الوسائل التى تغير الأمم وتحولها من حال الى حال . لأن كل تغيير فى الأمم انما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات وأخلاق وعادات لاتتولد فى النفوس ولا تتمكن منها الا بالتربية ، أى بواسطة المرأة .

فاذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبتدئوا فى الاصلاح من أوله ، يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية ومقام فى عالم التمدن الانسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلتهم وسطا صالحا لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء فى أن البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح الا اذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع أعمالهم .

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس ، يوم جاهرنا بها فى العام الماضى (١) . ضربا من الهذيان ، وحكم الفقهاء بأنها خرق فى الاسلام ، وعدها الكثير من متخرجى المدارس مبالغة فى تقليد الغربيين . بل انتهى بعضهم الى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أمانى الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الاسلامى . ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم . الى غير ذلك من الأوهام التى

(١) أى عند صدور كتاب (تحرير المرأة) .

يصغى اليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم ادراكهم منافعهم الحقيقة ٠

ونحن لانريد أن نرد عليهم الا بكلمة واحـــدة وهى : أن الأوروبيين اذا كانوا يقصدون الاضرار بنا فما عليهم الا أن يتركونا لأنفسنا ، فانهم لايجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنـــا الحاضرة !

هذا هو الحق الذى لاريب فيه ، ومهما اجتهد قوم فى اخفائه وغفل آخرون عنه فلابد أن ينجلى للكل ٠ عاجلا أو آجلا ، شـــأن الحقيقة فى جميع الأزمان

وكل ناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها ما يدل على أن النساء عندنا قطعن دور الاستعباد ، ولم يبق بينهن وبين الحرية الا حجاب رقيق ، اذ يرى :

أولا : شعورا جديدا عند المصريين بالحاجة الى تربية بناتهم بعد أن كانوا لايعلمونهن شيئا ٠

ثانيا : تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا الى التلاشى

ثالثا : تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحاليـــة ، وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة ٠

رابعا : اهتمام الحكومة وبعض أبناء البلاد ، وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية باصـــلاح المحاكم الشرعية ٠ وكل من اطلع على التقـــرير الجليل الذى وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجـــد أمورا كثيرة تأتى باصلاح كبير فى العائلات المصرية ، وأخص بالذكر منها ما أتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال :

« هذا وانى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة ، فان الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ، ولا يزال معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية ، ثم انه لا يطلقهن ولا واحدة منهن ، ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفى أولادهن ، ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله ، وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد (١) ·

وقد حدث فى هذا العام أن كثيرا من النساء اللواتى حكم على أزواجهن بالأشغال الشاقة مؤبدا أو بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكون الى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة ، حيث لا سبيل لهن من الانفصال من أزواجهن ، ولا يوجد لهن عائل يقوم بنفقاتهن ومعاش أولادهن ، فاضطرت نظارة الحقانية الى استفتاء حضرة مفتى الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التى يمكن اتخاذها لازالة أسباب الشكوى ، فبحث حضرته فى هذه المسألة وفى مسائل أخرى تشابهها ، واستنتج من فقه المالكية احدى عشرة مادة ، وقدمها الى نظارة الحقانية واليك بيانها ننشرها افادة للقراء (٢) ·

المادة الأولى :

اذا امتنع الزوج عن الانفاق على زوجته فان كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة فى ماله ، فان لم يكن له مال ظاهر وأصر على عدم الانفاق طلق عليه القاضى فى الحال ، وان ادعى العجز فان

---

(١) انظر تقرير اصلاح المحاكم للامام محمد عبده فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة التى حققناها · ص ٢١ وما بعدها · طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ · المؤسسة العربية للدراسات والنشر ·

(٢) انظر النص الكامل لهذه الفتوى فى الجزء السادس من الأعمال الكاملة للامام محمد عبده · التى حققناها · ص ٣٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م ·

لم يثبته طلق عليه حالا ، وان أثبت الاعسار أمهله مدة لاتزيد على شهر فان لم ينفق طلق عليه بعد ذلك .

المادة الثانية :

ان كان الزوج مريضا او مسجونا وامتنع عن الانفاق على زوجته أمهله القاضي مدة يرجى فيها الشفاء أو الخلاص من السجن . فان طالت مدة المرض أو السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضي .

المادة الثالثة :

اذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضي له أجلا ، فان لم يرسل ما تنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضي بعد مضي الأجل ، فان كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت أنه لا مال له تنفق منه الزوجة طلق عليه القاضي .

المادة الرابعة :

اذا كان للزوج الغائب مال او دين في ذمة او وديعة في يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين . ولها ان تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة . ويقضى بطلبها بلا كفيل . وذلك بعد أن تحلف أنها مستحقة للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالا ولم يقم عنه وكيلا في الانفاق عليها .

المادة الخامسة :

تطليق القاضي لعدم الانفاق يقع رجعيا . وللزوج أن يراجع زوجته اذا أثبت يساره واستعد للانفاق في أثناء العدة . فان لم يثبت يساره أو لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة .

المادة السادسة :

من فقد فى بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها أن ترفع الأمر الى نظارة الحقانية ، مع بيان الجهة التى تعرف أو تظن أنه سار اليها أو يمكن أن يوجد فيها ، وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنه فى مظنات وجـــوده بطرق النشر للحكام ورجـــال البوليس ، وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين ، فاذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة الى قضاء ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره ٠

المادة السابعة :

اذا جـــاء المفقود أو تبين أنه حى ٠ وكان ذلك قبـــل تمتع الزوج الثانى بها غير عالم بحياته ، كانت الزوجة للمفقود ولو بعد العقد مطلقا أو بعد التمتع فى حال ما لو كان الزوج الثـــانى عالما بحياة المفقود فان ظهر أن المفقود مات فى العدة أو بعدها قبل العقد على الزوج الثانى أو بعده ورثته مالم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الأول ٠ فان مات بعد تمتعه وهو عالم بحيـــاة الزوج الأول لم ترث ٠

المادة الثامنة :

من فقد فى معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وثبت أنه حضر القتال ، جاز لزوجته أن ترفع الأمر الى ناظر الحقانية ٠ وبعد البحث عنه وعدم العثور عليه تعتد الزوجة ٠ ولها أن تتزوج بعد العدة ٠ ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره ، فان لم يثبت الا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه ما فى المادتين السابقتين ٠

المادة التاسعة :

لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر الى ناظر الحقانية ، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة ، فاذا انقضت اعتدت وحل لها الزواج بعد العدة . ويورث ماله بعد انقضاء السنة .

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود اذا كان في ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة والا رفعت الأمر الى القاضى ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها .

المادة العاشرة :

اذا اشتد النزاع بين الزوجين ، ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها فى كتاب الله تعالى ، رفع الأمر الى قاضى المركز . وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب الزوجة . والأفضل أن يكونا جارين ، فان تعذر العدول من الأقارب فانه يعينهما من الأجانب . وأن يبعث بهما الى الزوجين ، فان أصلحاهما فبها والا حكما بالطلاق ورفعا الأمر اليه . وعليه أن يقضى بما حكما به ، ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليهما .

المادة الاحدى عشرة :

للزوجة أن تطلب من القاضى التطليق على الزوج اذا كان يصلها منه ضرر ، والضرر هو مالا يجوز شرعا ، كالهجر بغير سبب شرعى . والضرب والسب بدون سبب شرعى . وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الازهر ـ حيث أرسل الى حضرة المفتى الجواب الآتى :

« حضرة الأستاذ صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية أيده الله » .

باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ٤ الجارى نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل على احدى عشرة مادة مستخلصة من مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، المطلوب ابداء رأينا فيه . قد رأينا ما رايمره ، ووفعنا عليه بالموافقة . وشكرنا همتكم العالية على اعتناء فـ. ..ا. بهذا الخطا. الجليل . وال.. ا المشروع المذكور يا أ.. ..ام .

الفقير سليم البشرى ، المالكى خادم العلم والفقراء بالأزهر

٦ ربيع آخـــر سنة ١٣١٨ (١)

هاتان المسالتان مسالة تعداد الزوجات . ومسالة تخويل المرأة حق الطلاق . هما من أهم المسائل التى استلفتنا اليها الأنظار فى كتاب [تحرير المرأة] ويسرنا أن عالما عظيما وفقيها حكيما مثل حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده رأى انهما جديرتان بهمنه . فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما .

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ فى البيوت كل يوم تنبئنا بأن حالة المرأة المصرية أخذه فى التحسن والترقى .

غير ان هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية . بل حدثت فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعى القاضى بأن كل حيوان يتطبع بطبيعة

(١) الموافقة لسنة ١٩٠٠ م.

الوسط الذى يعيش فيه • والدليل على أن لا دخل لارادتنا فى هذه الحركة أننا عندما قلنا بوجوب المحافظة عليها واعدادها حتى نبلغ منها الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادئ هذا التحول فى نفوسهم وبدت بوادره فى بيوتهم •

ولا عجب فى ذلك • فان شأننا أن نتبع أهواءنا فى جميع أعمالنا •

وقد أطلنا الوقت الذى يجب فيه أن نعرف ماذا نريد ؟

ان كان مقصدنا من الحياة أن يعيش كل منا بضع سنين يقضيها فى أى حال كانت واستوى لدينا العز والذل • والغنى والفقر • والحرية والرق • والعلم والجهل • والفضيلة والرذيلة • فأرى أن ما منح الى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لا داعى له • ولا أجد مانعا من أن يتمتع الرجل بعدة نساء • ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها فى اليوم التالى ويسجن زوجاته وبناته واخواته وأمه وجدته اذا شاء ! •

يوجد فى أفريقيا وآسيا أمم عديدة تعيش النساء فيها مدفونات فى البيوت بحيث لا يرين انسانا ولا يراهن أحد • ويوجد بين هذه الأمم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة الى حد أنه متى توفى زوجها وجب عليها أن تعدم نفسها لكيلا تتمتع بالحياة بعده ! فما علينا الا أن توجه أنظارنا الى هؤلاء الأمم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم فى الجهل والاحتجاب • لعلنا نجد عندهم ما يقوى حجتنا فى تشديد الحجاب والحجر على المرأة ! •

أما اذا كان المقصد هو ما نقرؤه ونسمعه كل يوم من أن المصريين يريدون أن يكونوا أمة حية راقية متمدنة فلنا أن نقول لهم :

توجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التى تشتكون منها ، وتصعد بكم الى أعلى مراتب المدن • كما تشتهون وفوق ما تشتهون ، ألا وهى تحرير نسائكم من قيود الجهل والحجاب • هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها • وليس لنا فضل فى اختراعها • فقد استعملتهاأمم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها • آنظروا الى الأمم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة • تجدوا أن تربية المرأة الأمريكية وأخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية وأخلاق وآداب المرأة الفرنساوية • وأن هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية • وأن المرأة الطليانية لا تشبه فى شىء من ذلك المرأة السويدية ولا الألمانية • ولكن هؤلاء النساء على اختلاف الاقليم والجنس واللغة والدين بينهن اتحدن واجتمعن فى أمر واحد وهو أنهن يملكن حريتهن ويتمتعن باستقلالهن •

هذه الحرية هى التى أخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم • فكلما أضيف عليها التعليم وجهت ارادتها الى أن تشترك مع الرجال فى تقدم الجمعية التى تنسب اليها ، وتم هذا الاشتراك باتيانها أعمالا مفيدة تختلف بلا ريب عن أعمال الرجال ، ولكن لا تنقص عنها فى الأهمية فالتاجر الذى يقضى نهاره فى حانوت لبيع بضاعته • والكاتب الذى يمضى بضع ساعات فى ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير افادة الى مصلحة أخرى • والمهندس الذى يبنى قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد • والطبيب الذى يقطع عضوا ليحيى باقى أعضاء الجسم ، والقاضى الذى يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الناس ، جميع هؤلاء وغيرهم لايوجد منهم واحد يحق له ان يدعى أن عمله يفيد الهيئة الاجتماعية أكثر من عمل امرأة تهدى الى الجمعية رجلا وتربيه على أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته •

نحن لانقول لكم كما يقول غيرنا : اتحـــدوا كونوا عــون بعضكم لبعض • أو طهروا أنفسكم من العيوب التى تعهدونها فى أخلاقكم • أو اخدموا أهلكم ووطنكم ، أو ما يماثل ذلك من الكلام الذى يذهب فى الهواء •

نحن نعلم أن تغيير النفوس لاتنفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى • وانما يتم • كما ذكرنا ، باعداد نفوس الناشئين الى الحال المطلوب أحداثها •

ذلك هو السير الطبيعى البعيد الأمد المحفوف بمصاعب • ولكن أسهل المصاعب هى التى تنتهى بالفوز والنجاح •

وأقرب الطرق هى التى توصل الى المقصد •



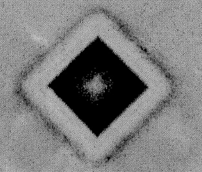
[انتهى الكتاب والحمد لله]

فهــرس

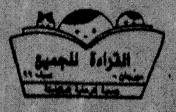
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٥٦ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3378 — 7



مكتبة الأسرة



بسعر رمزي جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب.